إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٦٠)

شرح الكلمات:

البيّنات – جمع بينة، وهي البراهين والآيات التي تكون بنفسها شاهدة على صدقها.

الهُدى- هو تلك التعاليم النازلة من الله وتوصل الإنسان إليه.

يلعنهم- اللعنة هي الإبعاد بالزجر والطرد.

التفسير: اللاعنون قسمان: الأول – الذي اعتاد سب الآخرين ولعنهم، ولكن هذا المعنى لا ينطبق هنا، لأن الذي يسب ويلعن إخوانه لا شك أنه سيئ الأخلاق ومنافق ومخالف لتعليم القرآن.. فلا يمكن أن يكون هؤلاء سيئو الأخلاق ذوو النفوس المنافقة مع الله تعالى.. لأنهم ليسوا أظلالا له عز وجل. والثاني – هو ذلك الذي فوّض الله إليه هذا العمل. والذين يفوّض الله إليهم هذا العمل هم أنبياء الله ورسله، الذين يعلنون بوحي منه أن فلانا عرضة للعنة الله تعالى، وفلانا عرضة لسخطه. فاللاعنون هم تلك الشخصيات التي منحهم الله حق اللعن على الآخرين.

وقوله تعالى (بيّناه للناس في الكتاب).. ليس المراد من الناس هنا اليهود وإنما المسلمون، والكتاب هنا هو القرآن الكريم. ويقول الله هنا.. إنه بمجرد الإعلان عن هذه الحرب التي نلمح إليها و لم نعلن عنها بعد.. سوف يظهر نفاق المنافقين. إن هؤلاء الذين في قلوبهم النفاق هم أعداء الإيمان. كلما يُتلى عليهم أمر يتطلب التضحية ويثير الأعداء فإنهم يُخفون مثل هذه التعاليم عن الأعداء قائلين: صحيح أن ما نزل هو الحق، ولكن ما الحاجة إلى عرضه على الأعداء الآن؟ إنه سوف يثير سخطهم ويجعلهم يعارضوننا.

في الجماعات الإلهية- عندما تنزل أحكام يثير العمل بها غضب الأعداء- توجد طبقة من الناس يولون اهتماما أكثر بسخط الأعداء ويُداهنون، ويُخفون مثل هذه الأحكام حتى لا يطلع عليها الناس بطريقة واضحة صحيحة فلا تثور حفيظتهم.

ومثل هذه المداهنة والنفاق لا تحدث في زمن ضعف الجماعات الدينية وإنما في أيام قوتها وغلبتها. فلم ترفع أي فئة من المنافقين رأسها ما دام الرسول ﷺ في مكة، ولكن في حياته المدنية عندما أخذ الإسلام يشتد عوده، وأعلن الله أن على المسلمين الاستمرار في الحرب ما لم يتم فتح مكة.. بدأ ضعفاء الإيمان هؤلاء يلقون إلى الكفار السَّلَم ليتجنبوا التعرض للأخطار والأضرار، وبدءوا يتوصلون إلى الكفار.. قائلين: إن محمدا رجل طيب مسالم، لا يريد حربكم، ولكن هناك بعض المتحمسين ذوي الطباع الثائرة يحضّونه على حربكم. كما كان هناك من يخفون كلام الله تعالى ويُطمئنون الأعداء قائلين: لن يصيبكم أي بأس ولا دمار. مع أن إخفاء الوعيد الإلهي ضد الكفار يُفقد قيمة الإنذار وعظمة الوعيد. أما لو قيل لهم إن هناك وعيدا بعذابكم.. والأفضل لكم أن تتوبوا.. عندئذ تقوم عليهم الحجة قبل حلول العذاب، وسوف يكون العذاب آية عظيمة عند ذوي العقل وأولي الألباب.. ولكن المنافقين يخفون مثل هذه الأمور حتى لا تفسد علاقتهم بالآخرين. يقول الله إن هؤلاء يُحرَمون من البركات الإلهية كلية، وعلاوة على تعرّضهم للعنة الله تعالى.. فسوف يلعنهم مَن خوّلهم الله سلطة اللعن.. كما فعل النبي ﷺ وسيدنا المهدي وغيرهما من الأنبياء الآخرين – عليهم السلام –الذين لَعنوا أعداءهم (البخاري، التفسير؛ الترمذي، أبواب التفسير، آية: ليس لك من الأمر شيء؛ ونور الحق ص١٥٩؛ وتثنية ٢٧؛ ومتى ٣٢). بل لا يزال الناس يلعنونهم، وسوف تتوالى عليهم اللعنات إلى يوم القيامة.

يعترض بعض الناس على سيدنا المهدي والمسيح الموعود: لماذا لعن بعضَ أعدائه وسوَّد عدة صفحات من كتبه مرددا هذه الكلمة؟ ويظن هؤلاء أن سيدنا المهدي قد سبّ هؤلاء الناس، والعياذ بالله!

الحق أنه لم يسبهم، وإنما أعلن عن قضاء الله وقدره، وبين أن هؤلاء قد حُرموا من رحمة الله وأُبعدوا عنها بأعمالهم السيئة. ومثال ذلك أن يصدر قاضٍ قرارا في سَجنِ مجرمٍ زمنا ما. فقراره هذا يُعتبر صحيحا وجديرا بالقبول عند العقل. ولكن لو أن شخصا آخر لم يخوّل من قِبَل الحكومة لإصدار مثل هذا القرار قال عن أحد أنه

يُسجن لمدة كذا.. فلا بد أن يعتبره الناس من المجانين. وكذلك فإن أنبياء الله هم قضاة روحانيون.. وإذا لم يعتبروا المجرمين مجرمين، ولم يُصدروا قضاءهم بشأنهم.. فإنهم أنفسهم يصبحون مجرمين، لأن هذا يدخل في صلب واجباتهم التي يتطلبها منهم منصبهم. ولكن غيرهم الذين يلعنون الآخرين بدون مبرر فإنما يفعلون ذلك لسوء أخلاقهم ودناءتهم، لأن الله تعالى لم يخولهم أي سلطة للعن الآخرين.

إلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦١)

التفسير: الناس في بلادنا عامة يظنون أن التوبة تعني أن يردِّد المرء كلمة التوبة بلسانه، فهذا يغفر له جميع ذنوبه. مع أن ترديد المرء كلمة التوبة بلسانه لا يجعله مستحقا لمغفرة الله ما لم يحدث تغيرا في أعماله. إن التوبة في الحقيقة تتكون من ثلاثة أمور: الأول – إقرار الإنسان باللسان بذنبه، الثاني- الندم في القلب على ذنبه، والثالث –تدارك وتلافي ما فعله عمليا. وهذا يعني أن يرجع الإنسان إلى نفس المقام الذي كان عليه قبل ارتكاب المعصية. ومثل هذه التوبة ليست أمرا هينا، وإنما هي بمثابة حدوث انقلاب عظيم في الروح الإنسانية.. لأنّ تولُّد كراهيةٍ شديدة في قلب الإنسان تجاه ذنوبه، ورغبة صادقة في نفسه للفوز بحب الله والحصول على الروحانية، وذوبان قلبه على عتبة الله تضرعا وبكاء، وفناء أهوائه السفلية الدنية.. هذا كله بمثابة أن يصلب الإنسان نفسه لوجه الله تعالى، ويقضي على حياته السابقة.

إن المسيحيين الذين لا يقفون على حقيقة التوبة الإسلامية يعترضون عموما أن الإسلام قد فتح باب الإثم بفتح باب التوبة (ميزان الحق، للقسيس فاندر ص١١٩-٢٧٣). مع أن التوبة التي يقدمها الإسلام لا يمكن أن تكتمل ما لم يعترف الإنسان بذنبه بلسانه، وما لم يندم بقلب صادق على فعله، وما لم يتعهد بتجنب الذنب في المستقبل كلية، وما لم يتلافاه بعمل الخير والرجوع إلى الله. ومنذا الذي يقول بأن

مثل هذه التوبة تشجع على الإثم؟ إنما تشجع على الإثم عقيدتهم القائلة إن المسيح تحمّل آثامهم، ولا حاجة لهم في يندموا أو يحزنوا على خطيئة. إن التوبة الإسلامية لا تشجع على الإثم، وإنما تستأصل الإثم برُمَّته، وتجعل من الإنسان إنسانا روحانيا جديدا. وعن مثل هؤلاء التائبين يقول الله هنا إنهم يرجعون إليه كلّية، ويندمون في قلوبهم بصدق، ويزيلون آثار الإثم، ولا يكتفون بذلك، بل يحاولون إصلاح عيوب الآخرين. وكأنهم لا يتغيرون وينفرون من سيئاتهم ويصلحون حالهم فقط، بل يحاولون إزالة عيوب الآخرين. ولا يكتفون بإصلاح ما حولهم، بل يعلنون على العالم أن دين الحق هو الإسلام وفيه نجاتهم. يقول الله تعالى (فأولئك أتوب عليهم).. أنا أيضا أتوب على مثل هؤلاء التائبين وأتفضل عليهم.

إن كلمة التوبة عندما تُستخدم في حق الله تعالى فإنما تعني رجوعه إلى العبد برحمته وفضله، وعندما تُستخدم في حق العبد فإنها تعني إظهار ندمه على ما فعل، واعترافه بخطئه، وخضوعه لله تعالى. يقول الله عز وجل: إن الذين يندمون على خطاياهم، ويعترفون بها، ويرجعون إليّ، ويهتمون بإصلاح الآخرين، ويتمسّكون بالإسلام بقوة.. أغفر لهم ذنوبهم، وآتي بهم مرة أخرى إلى نفس المقام الذي كانوا عليه من قبل، وأعيد عليهم أفضالي كما فعلت معهم سابقا لأنني أنا التواب الرحيم.. أشفق عليهم كثيرا وأرحمهم مرة بعد أخرى.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١٦٢) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (١٦٣)

التفسير: هنا يقول الله تعالى إن هؤلاء الذين يموتون كافرين عليهم لعنة الناس أجمعين. وفي الآية السابقة ذكر أن عليهم لعنة الخواص من عباده الذين أُذن لهم. ذلك لأنه في الآية السابقة كان اللعن يعني الإخبار بهلاكهم ودمارهم، وهذا العمل من اختصاص أنبياء الله وحدهم. أما في هذه الآية فليس المقصود الإخبار عن هلاك أحد. ولذلك ذكر لعنة الناس جميعا.. لأن جميع الناس لا يُخبِرون عن هلاك

غيرهم. فالمراد من اللعنة هنا.. هو صوت الفطرة الإنسانية الذي ينبع من القلب. مثلا: إذا ذكرتَ السرقة أمام سارق فإنه على الفور يحكم بأن اللصوص قوم أشرار، مع أنه نفسه يقع في جريمة السرقة، ذلك أن فطرته تلومه وتخطِّئه. وكذلك المراد من اللعنة هنا أن كل إنسان –صالحا كان أو طالحا –فإنه بفطرته يلعن الكفار على أفعالهم. حتى المجرم، وإن كان لا يلوم نفسه، إلا أنه يلوم الجريمة ويعتبرها شرا.. وهذه هي اللعنة. إن الله وعبادَه أصحابَ الصفات الملائكية يلعنون الكفار لعنة علنية، أما الناس الآخرون فيلعنونهم من حيث الفطرة والمبدأ. فليس هناك قوم يعتبرون الكذب عملا حسنا، أو الغيبة أمرا طيبًا أو السرقة فعلا صالحا أو الاغتيال أمرًا محمودًا. أما على صعيد الفرد فكلما ارتكب أحد شيئا منها فإن نفسه تلومه عندئذ وتقول: لقد ارتكبت عملا شريرا. فسواء اعتبروا عملهم شرا أم لا.. لو رأوا أحدا يرتكب هذا الفعل فلا بد أن يعتبروه سيئا. هذه هي اللعنة المرادة هنا، وهي لا تنمحي أبدا، لأن الفطرة الإنسانية تؤيدها.

وقوله تعالى (خالدين فيها).. أي هذا مبدأ أبدي لن يتغير. لقد جاءت الفلسفات واحدة بعد الأخرى، وتوالت الحضارات.. ولكن أوروبا اليوم أيضا تقول أن الكذب سيئ، والظلم شر، والسرقة مشينة، والغيبة مكروه.. فاللعنة على هذه الشرور هي كما هي ولن تتغير. هذا ما تؤكده أيضا فلسفة اليونان والفرس وغيرهما. فهو مبدأ غير قابل للتغير. فإذا جاءت حضارة جديدة غدًا فلسوف تقرر نفس المبدأ ولن تخالفه.

وقوله تعالى (لا يخفّف عنهم العذاب ولاهُم يُنْظَرون) يبين أن أعمال منكري الأنبياء عندما تتجاوز الحدود.. فمن سنة الله محاصرتهم بالعذاب السماوي. وهذا العذاب لا يُخفف عنهم ولا يُمْهَلون. نعم، يُعطون فرصة للتوبة قبل نزول العذاب، ولكن إذا لم ينتفعوا من رحمة الله، وأصروا على الرفض، واستمروا في استهزائهم بالآيات السماوية، فيُصب عليهم سوط العذاب الإلهي، وعندئذ لا يُجديهم صراخهم وعويلهم نفعا.

انظروا إلى كل من عارض رسلَ الله تعالى.. فلا تزال اللعنة تنصب عليهم رغم مرور آلاف السنين. لقد مضى على هلاك النمرود آلاف السنين، ومر على غرق فرعون في البحر قرون طويلة.. وكذلك انقضى على هلاك الكتبة والفريسيين الذين علّقوا المسيح على الصليب عشرون قرنا، ومرّ على هلاك أبي جهل في وقعة بدر أربعة عشر قرنا.. ولكن كل إنسان شريف كلما ذكر النمرود فإنه يلعنه، وإذا ذكر فرعون فإنه يلعنه، وإذا تطرق الحديث إلى الكتبة والفريسيين اليهود فيلعنهم، ويلعن أبا جهل إذا ذُكر اسمه.. ويلعن من قتلوا سيدنا عثمان رضي الله عنه. ثم إن العذاب الذي سوف يترل بهم في الحياة الآخرة يفوق التصور. فالعذاب مستمر إذن لأنهم عارضوا رسل الله تعالى.

وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٤)

التفسير: يقول الله تعالى: ما الداعي لِلخوف من الأعداء مع أن إلهكم ذو صفات كاملة.. وهو الرحمان الرحيم. فتوكلوا عليه واستعينوا به، فهو موجود لحمايتكم.. ولن يستطيع أعداؤكم التغلب عليكم، مهما كانت سفينتكم في مهب رياح المصاعب، ومهما اصطدمت بدوامات المتاعب، فإنه سوف ينقذكم ويوصلكم إلى بر الأمان والفلاح.

رأيت مرة في الرؤيا أنني قادم في سفينة من ناحية "بَهِشْتِي مقبرة"[١١] ومعي أناس آخرون. ويبدو أن في الطريق فيضانا وطوفانا.. وعندما وصلنا إلى مكان الجسر حيث كانوا يضعون من قبل لوحين من الخشب ليعبر عليهما الناس.. رأيت أن سفينتنا قد وقعت في دوامة وأخذت تدور.. فخاف كل الركاب، وعندما وصلوا إلى حد اليأس خرجَتْ من الماء فجأة يدٌ تحمل كتابة تقول إن هناك قبرا لأحد أولياء

[١١] معناها مقبرة أهل الجنة.. جعلها سيدنا المهدي بقاديان كمدفن للصلحاء من أتباعه فقط، الذين يضحون على الأقل بعُشر أموالهم لنصرة الدين، مع اتصافهم بالصلاح والتقوى.

الله، فالتمسوا منه العون تخرج السفينة من الورطة. فقلتُ: كلا، هذا إشراك بـــالله تعالى.. ولن أعمل بهذا الرأي ولو هلكتُ. وكلما كنت أصرّ على الرفض يـــشتد دوران السفينة. فقال بعض زملائي: ما الحرج في ذلك؟ وكتبوا رسالة على ورقـــة باسم هذا الولي وألقوها في الماء بدون عِلمي. وعندما بلغني ذلك تحمست وقلت: هذا شرك بالله تعالى، وقفزت في الماء وأخذت الورقة وخرجت بها، وما أن أتممت ذلك حتى خرجت السفينة من الدوامة.

فمهما كانت المشاكل والشدائد التي وقع فيها المؤمن فعليه أن يكون متوكلا على الله تعالى، وأن لا يسمح أن يتولد في قلبه خوف من أحد سواه سبحانه تعالى.

ويمكن أن يسأل أحد: إذا كان الله معبودنا، فكيف نعرف بماذا سوف يعاملنا؟ فردّ الله على ذلك بقوله تعالى (هو الرحمان الرحيم). إنه دائما يعامل بحب كامـــل، ولا يخذل عبده إلا إذا خذل العبد نفسه. إنه رحمان.. أي منذ البداية، وبدون أي عمل من الإنسان إنه تعالى قد تفضل عليه بأفضال كثيرة، وعندما يستعين العبد ويستغل ما يَسَّره الله له من أسباب.. فإنه ينعم عليه ويحسن إليه أكثر وباســـتمرار.. لأنـــه رحيم.

إن مَثل "الرحمان الرحيم" كمثل الفلاح العجوز الذي كان يزرع النخل، وأخذ من الملك جوائز مرات ومرات. ولكن كنوز الملك كانت محدودة فكف عن مكافـــأة الفلاح العجوز في آخر الأمر. ولكن خزائن ربّنا غير محدودة، بل إن مَلِكنا بنفـــسه يقول: اسألوني أُعطكم، واستمروا في السؤال أُعطِكم باستمرار. فالله تعالى يتفضل بالإنعام مرة بعد أخرى ولا تنفذ خزائنه.. ويقول: اعملوا أُنعمْ عليكم، ثم اعملـــوا أُنعمْ عليكم مرة أخرى، وهكذا كلما عملتم وأحسنتم أنعمت عليكم، وأستمر في إنعامي على الدوام.

إن كلمة (إلهكم) قد تشكك في أن هناك إلها آخر للغير، أو ربما تكون هناك آلهـــة أخرى للأقوام الآخرين.. فأزال هذه الشبهة بقوله تعالى (لا إله إلا هو). ثم ذكـــر

من صفاته الكاملة (الرحمان الرحيم) ليبطل بذلك منطقيا ضرورة وجود أي إله آخر.

الرتيب والربط:

في الآيات السابقة بيّن الله أننا وجهناكم إلى بيت الله الحرام طبقا للدعاء الإبراهيمي، ثم ركَّز على فتح مكة قائلا: إن الناس ينتظرون فتحها لأنه سوف يُدخل الناسَ في الإسلام أفواجا. ولما كانت الحروب تؤدي إلى كثير من المشاكل والشدائد.. أوصى الله بالصبر والاستعانة بالدعاء. وأَتبعَ ذلك بمثال من حياة إسماعيل وهاجَر، وبين أن الذين يضحون في سبيل الله تعالى لا يضيعهم الله. ثم ذَكر الحج والعمرة والسعي بين الصفا والمروة، ليشير إلى أن أمْره بالحج والعمرة يعني أنه سوف يأتي بيوم يتيسر لكم فيه أداؤهما، ويتم السعي بين الصفا والمروة في راحة وسهولة.

فهذه الآيات تتضمن نبأ بأن مكة سوف تُفتح للمسلمين لا محالة في يوم من الأيام.. ذلك لأنه عند نزولها ما كان كفار مكة يسمحون للمسلمين بالاقتراب من المسجد الحرام، بل لم يسمحوا للنبي ﷺ بالطواف حتى بعد نزول هذه الآيات بسنوات. ولكن الله تعالى يقول إنه سوف يأتي يوم تستولون فيه على مكة ولن تعانوا من أي مشكلة في الحج والعمرة.

وأخيرا يقول إن إلهكم إله واحد لا معبود سواه.. هو الرحمان الرحيم.. فأنشِئوا صلتكم به ولا تخافوا كثرة الأعداء، فإن الله يريد أن يوطد توحيده في العالم، ويريكم تجليات من رحمانيته ورحيميته.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٥)

شرح الكلمات:

اختلاف-اختلف زيدٌ عمرًا: كان خليفته؛ جعله خلفه؛ أخذه من خلفه(الأقرب). قال الراغب الأصفهاني عن اختلاف الليل والنهار: أي مجيء كل واحد منهما خلف الآخر وتعاقبهما (المفردات).

الفُلك-السفينة (الأقرب)، وهو يُذَكّر ويُؤنث ويفرد ويجمع، كقوله تعالى (إذ أبق إلى الفلك المشحون) (الصافات: ١٤١)، وقوله تعالى (حتى إذا كنتم في الفلك وجَرَيْنَ بهم بريح طيبة) (يونس: ٢٣).

التفسير: في الآية السابقة قال الله تعالى (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم).. وفي بداية هذه الآية جاء بنظائر الرحمانية والرحيمية كدليل على وجوده. فإنه قبل كل شيء وجّه أنظار الإنسان إلى خلق السماوات والأرض، وبيّن أن في خلقها آيات عظيمة لأصحاب العقول. بمعنى أنهم لو تدبروا وأمعنوا النظر لأدركوا بسهولة أن لا شيء في السماوات والأرض إلا وله علاقة وثيقة بحياة الإنسان، وأن وراء كل هذه الأشياء يدَ رحمانيةِ الله، ولا دخل فيها لعمل الإنسان وسعيِه. انظروا إلى الهواء والماء والشمس والقمر والنجوم.. فكلها لا تجري ولا تعمل بسبب جهد من جانب الإنسان، وإنما سخرها الله لخدمة الإنسانية كأثر لصفته الرحمانية. ولولا هذه الأشياء لم يستطع الإنسان البقاء حيًّا لحظة واحدة في هذا العالم. ثم لو لم يكن في السماوات والأرض قانون معين ونظام لا يتبدل.. لصارت الإنسانية بدون جدوى. ولكن الله تعالى كما جعل كل شيء في العالم لخدمة ونفع الإنسان، كذلك جعل كل شيء تابعا لقانون.. حتى يتقدم الإنسان ويزدهر بدون خطر.

ولقد ذكر الله هذه الحقيقة في موضع آخر من القرآن الكريم: (الذي خلق سبع سماوات طِباقا، ما ترى في خلق الرحمان من تفاوُتٍ، فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصرَ كَرّتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير) (الملك: ٤، ٥) فقوله تعالى (ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير) يعني أنك لن تجد خللا في نظام العالم. فكون العالَم يسير بقانون معين، وحركة الشمس والنجوم تسير حسب هذا القانون والنظام بدون خلل أو انحراف أيضًا.. يمثل دليلا على أن لهذا الكون خالقا باليقين. ولو كان لهذا الكون أكثر من خالق –كما يعتقد المسيحيون–فلا يمكن أن يكون كل هذا الكون تابعًا لقانون؛ بل لا بد أن يقع فيه خلل. فبتوجيه أنظارنا إلى خلق السماوات والأرض يقدم الله سبحانه دليلا على وجوده ووحدانيته أيضا، وكونه رحمانا.. أي يرحم ويتفضل على عباده بلا نهاية، وينعم عليهم بإنعامات لا دخل لأعمالهم في الحصول عليها.

وكذلك خلْق السماوات والأرض لدليل على رحيميته، لأن من يعمل بحسب قوانين الله يجزيه أحسن الجزاء، فلا يمكن أن يحرُث الإنسان الأرض ويبذر البذر ويروي الحقل ويتعهد الزرع ثم لا يفوز بمئات الحبات مكان كل حبة واحدة، أو يسعى سعيا صحيحا ثم يُحْرم من ثمار مساعيه. فهاتان الصفتان تسيران وتتجليان جنبا إلى جنب معا. وكل شيء يشير ببنان وجوده إلى وجود الله تعالى.

والحقيقة أن العلم بوجود الله يتم بعد العلم والمعرفة بأشياء أخرى.. لأن هذا العلم علم كلّي. فبعض الأشياء تُرى في حد ذاتها، وبرؤيتها يطّلع الإنسان على وجودها. فمثلا لو وضعنا أمام طفل أصبعًا يدرك وجودها بأبعادها من طول وعرض وسمك.. بدون أي حاجة لإدراك التفاصيل من أن وراء هذا الإصبع يدا، وأن هذه اليد متصلة بساعد، وأن الساعد متصل بالكتف، والكتف بعنق ورأس، وأن في الرأس دماغا يأمر هذه الأعضاء بالحركة والسكون.. ونتيجةً لذلك وجدت أمامي هذه الإصبع. فالعلم بالإصبع لا يحتاج العِلمَ بباقي الأشياء. ولكن العلم بذات الله تعالى علمٌ كليّ، ولا يتم ما لم يتم العلم بالجزيئات. إننا نعرف الله بمعرفة مخلوقاته.

هذا العلم يكتمل ويتسع شيئا فشيئا.. نحن نعرف شيئا بعد الشيء، ثم شيئا ثالثا.. فرابعا. فإذا تم العلم بالجزيئات المخلوقة.. نتعرف منها ذات الله تعالى. إن أبسط الناس لو تدبر لوجد دليلا على وجود الله.. كما قال أحد الأعراب عندما سئل عن إيمانه بالله، فضحك وقال: لست بمجنون حتى لا أعرف ربي.. فالبعرة تدل على البعير، وأثر القدم على السفير، فالسماء ذات الأبراج والأرض ذات الفجاج.. أما تدل على قدير؟

غير أن هذا علم بسيط يعترض عليه الفلاسفة ويقولون إن خَلْق السماوات والأرض وحده لا يمكن أن يشكل دليلا على وجود خالق لها، لأن بعض الأشياء تحدث مصادفة، وكل الناس يعرفون أنها حدثت صدفة.

وقد رد القرآن على اعتراض الفلاسفة والمنكرين هذا وقال: صحيح أن وجود الكون وحدَه لا يمكن أن يكون دليلا كاملا على وجود الله تعالى، ويمكن أن تُسمّوه من المصادفات، ولكن وجود ترتيب ونظام في كل كون، ووجود ارتباط بين عناصر الكون، ووجود حكمة في كل ذرة.. لا يمكن أن يتم كل هذا بالمصادفة.. بل هو دليل على أن هناك خالقا لهذا الكون، خلقه بنظام ولحكمة. فمن ناحية جعل للإنسان عينا لها القدرة على الرؤية، ومن ناحية أخرى جعل للشمس نورا ترى بها العين. وخلق الأنف للشم، وإزاء ذلك خلق الرائحة التي يميزها الأنف. وخلق الأُذن للسمع، ومن جهة أخرى جعل للهواء خاصية الاهتزاز والذبذبة لنقل الأصوات إلى الأذن. فإذا كانت العين قد خُلقت بالمصادفة للرؤية.. فهل خُلق النور في الشمس مصادفة إزاء ذلك؟ وإذا كان الأنف قد خُلق صدفة للشم، فهل خلقت الروائح إزاءه صدفة؟ وإذا كانت الأذن قد وجدت للسمع صدفة.. فهل خُلق الهواء واهتزازه صدفة لذلك؟

لو لم يكن هناك نظام وارتباط وترتيب وحكمة بين هذه الأشياء لقلنا إنها خُلقت صدفة، ولكننا لا نجد في الكون ذرة خالية من نظام وحكمة. وما دام لكل شيء

ارتباط بشيء آخر ونظام، فكيف يمكن لنا التسليم بأن كل هذه الأشياء، وكل هذا النظام خُلق تلقائيا ومصادفة؟

ولكن إنما ينفع هذا الدليل إذا كان الإنسان قد بلغ الرشد، وتعوّد على التفكر والتدبر في هذه الأمور. يرى بالعين، ثم يفكر بالعقل، يلقي نظره على هذه الأشياء ثم يفكر فيما يختلج في قلبه من عواطف. يرى ضوء الشمس أو القمر، ويتفكر في تأثيره في الأشياء الأخرى، ويرى تأثير الحر والبرد، ويفحص صفات النباتات وخواصها. وما لم يكن عنده موهبة للتدبر في هذه الأشياء والتوصل إلى النتيجة بعدها.. كيف يصل إلى الله تعالى؟ غير معقول أن يتدبر الطفل الصغير في هذا الأشياء ثم يتوصل بها إلى أن هناك إلها.

الطفل يعرف أول الأمر أمَّه، ويعتبرها العالَم كلَّه. ثم عندما يعرف أن أباه هو الذي يمد أمّه بكل ما تحتاجه يبدأ في حبّ أبيه، ثم عندما يكبر ويخرج إلى الشارع للعب مع الصبية الآخرين يبدأ في حبّهم، وإذا غاب أحد زملائه يبكي ويصرّ على مقابلته. وعندما يشتاق للمأكل والمشرب أو الملبس يبدأ في حبها، وإذا لم يتفق شيء منها مع ذوقه أبدى سخطه ورفضه. وعندما يكبر يولع بالنزهة والصيد.. ويرى الحياة بدون ذلك غير ممتعة. إذن فإنه يطلع على هذه الأشياء ويتعرف عليها شيئا فشيئا، ويتعلق بها، ويرى أنه لا يستطيع العيش بدونها.. وكأنها هي الإله بالنسبة إليه. ثم في آخر المطاف.. يتخلى بالتدريج عن هذه الأشياء. ففي البداية يحب أمه فيراها إلها له، ثم يحب أباه فيراه إلها له، ثم يحب أصحابه فيراهم إلها له، ثم يحب الطعام والشراب واللباس فيراها إلها له.. حتى إذا بلغ سن الرشد وأحاطه الله بفضله ومكّنه من صحبة أستاذ صالح يعلمه، ووفّق أبويه إلى ترتبيته تربية حسنة.. عندئذ يتخلى عن كل هذه الأشياء، ويتجه إلى إلهه الحقيقي، ويعرف أن كل هذه الأشياء كانت آلهة باطلة. يقول: بسبب أهوائي النفسية كنت أرى أنها كل شيء، ولكن الإله الحقيقي هو مَن خلَقها.

إذن، ففي البداية يتولد حب غير الله في قلب الإنسان، ويظن أنه مدار حياته، ولكنه يترك كل هذه الأشياء واحدة إثر الأخرى. في أول الأمر يرى حضن أمه كل شيء، ويرى في الابتعاد عنه هلاكه. ثم يكبُر فيحب إخوانه وأصدقاءه، ويرى راحة ومتعة حياته في اللعب معهم. وإذا كان معهم لا يستجيب لنداء أمه إذا دعته.. وإنما يجد المسرة والسعادة في اللعب مع أصحابه. وعندما يكبر يحب التنزه والصيد، وينسى اللعب في الفناء مع الصغار، وتتركز مسرّاته في التنزه والصيد، وإذا حيل بينه وبينها ظن أنه هالك لا محالة. وبعد ذلك، يترك بنفسه كل هذه الأشياء شيئا فشيئا، حتى إذا بلغ سن الرشد عرف وجه الله الحقيقي بعد التدبر والتفكر، ويرى أن كل هذه الأشياء لغو فيتركها.

وبناء على هذا الترتيب الطبيعي قال المفسرون عن إبراهيم عليه السلام إنه أولا رأى كوكبا لامعا فقال: هذا ربي. ثم رأى القمر أكبرَ حجما وأكثرَ نورا من النجم فقال: هذا ربي، ثم رأى الشمس وهي أعظم وأشد ضياء من النجم والقمر فقال: هذا ربي. وعندما أفَلَتْ وغابت واحدة بعد أخرى قال: (إني وجّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض) (تفسير الدر المنثور للسيوطي).. أي في آخر الأمر آمن بالله قائلا: أبتعد عن كل صراط معوج، وأتجه إلى ربي الذي خلق السماوات والأرض.

هذا الحدث الذي يذكره المفسرون ليس صحيحا فيما يتعلق بشأن سيدنا إبراهيم، ولكن تفكير المفسرين كان صائبا في اتجاهه.. إذ رأوا أن العقل الإنساني يتجه من الأدنى إلى الأعلى عندما لا يصحبه نور الإلهام السماوي.

في أول الأمر تكون الأم هي كل شيء بالنسبة للرضيع.. أو بعبارة أخرى هي الإله بالنسبة إليه، بل إنه لا يعرف الأم في البداية.. وإنما يرى الثدي إلها له لأنه يرضعه، وإذا افتقده يبكي. ثم يتعرف على الأم ويبدأ في حبها، ثم يتعرف على الأب ويحبه، ثم يحب إخوانه وزملاءه الذي يلعبون معه، ويحب ما يتعلق بأكله وملبسه، ثم يحب أهل الشارع والحي، ثم يبدأ في ترك هذه الأشياء تدريجيا عندما توصله إلى الله

تعالى. ولو أن الطفل البالغ بضعة أشهر أُعطي القدرة على النطق والفهم، وقيل له إنك سوف تترك حضن أمك عندما تكبر، وسوف تقل رغبتك فيها لتحيّر كما يتحير العالِم الذي يقال له إن النار لا تحرِق وأن الشمس لا تضيء، ولو قيل لصبي في السابعة من عمره إنك عندما تكبر سوف تتزوج فتاة وتزداد رغبتك فيها حتى تترك أمك لقال: لست بمجنون حتى أترك أمي، ربما يفعل هذا غيري، ولكني لن أفعل ذلك أبدا.

فمن الأمور الفطرية أن الإنسان يرغب في أشياء مختلفة في أوقات مختلفة، وعندما يرغب في شيء فإنه لا يتوهم أنه سوف يتركه في يوم من الأيام. وعندما يكبر فلا يخطر في بباله أنه كان يحب هذا الشيء في وقت من الأوقات. وكان يرى العيش بدونه مرّا. وهذا هو المعنى لقول (أشهد ألا إله إلا الله). فالإنسان في البداية يفكر في غير الله؛ وهذا الطريق في الظاهر يؤدي إلى غير الله، ولكنه في الحقيقة الطريق المؤدي إلى الله تعالى. فلو لم يحب الطفل الثدي لم يحب أمه، ولو لم يحب أمه لم يحب أباه، ولو لم يحب أباه لم يحب إخوانه وأخواته، ولو لم يحب هؤلاء لم يحب زملاءه في اللعب، ولو لم يرغب في هذه الأشياء كلاً في وقته لم يستطع في الحقيقة أن يعرف ربه في وقته.

الواقع أن الإنسان يشعر بفراغ في فطرته، ولملء هذا الفراغ يحب أشياء مختلفة في أوقات مختلفة لعل هذا الشيء أو ذاك يسد هذا الفراغ. وعندما لا يطمئن بهذا الشيء يرغب في غيره لعله يحقق رغبته. ولكن يبقى الفراغ كما هو، فيرغب في شيء ثالث ليتحقق به مراده.. وهكذا ينتقل من شيء إلى آخر.. إلى أن يترك هذه الأشياء كلها واحدا بعد الآخر، ويصل إلى الله في نهاية المطاف، وعندما ينالُ اللهَ جل علاه فإنه يمسك به ولا يتحرك من مكانه. وإلى ذلك أشار القرآن في قول الله (وأنّ إلى ربك المنتهى) (النجم: ٤٣).. أي الإنسان في يوم من الأيام، وفي آخر المطاف يصل إلى الله.. غايتِه الحقيقية.. بعد المرور بما سوى الله من الأشياء. إنه لا يصل إلى غايته هذه على الفور.. وإنما يمر في رحلته بأشياء أخرى عديدة، ظنها آلهة

له بسبب صغره، ولكنه بالتدرج يترك كل هذه الأشياء، وكل شيء منها يأخذ بيده ويقربه إلى الله تعالى.

فلقد نبَّه الله هنا أنه لو تدبرتم في نظام الكون لرأيتم وجود الله تعالى في كل ذرة منه، ولاضطررتم إلى الاعتراف بأن كل شيء خلقه الله في السماوات والأرض وما بينهما إنما خلقه بحكمة وحق، ولم يخلقه عبثا، بل وراء خلقه هدف عظيم. ولما كان هذا الهدف لا يتحقق في الظاهر في هذه الدنيا.. لذا كان من الضروري ألا تتحدد الحياة الإنسانية بهذا العالم.. حتى يحقق الإنسان الغاية الأسمى من خلقه كما تقتضي عظمة هذا النظام. ولو أن الحياة الإنسانية كانت لتنتهي في هذه الدنيا.. لكان العبث والمخالف للعقل أن ينشئ الله هذا النظام العظيم الذي لّما يستطع العلماء الاطلاع على أسراره رغم ما حققوه من رقي علمي عظيم في شتى المجالات.

أتذكر أننا عندما دعونا عام ١٩٤٦(دكتور سير شانتي بتناجر) مدير معهد الفحص العلمي والصناعي بالحكومة الهندية.. لافتتاح معهد الفحص بقاديان.. قال في خطابه نفس القول.. بأن كبرياء العلماء قد كُسرت اليوم بحيث لا يستطيع أحد منهم الادعاء أن العلوم قادرة على تقديم شرح مناسب للأشياء التي نراها في الظاهر. فما دامت السماوات والأرض مليئة بأسرار يعجز العلم عن تفسيرها رغم بلوغه هذا الرقي العظيم، اللهمّ إلا جزءا بسيطا منها.. فكيف يصح قولهم إن الإنسان الذي خلق وسُخر هذا الكون الواسع لخدمته إنما خُلق عبثا؟

وفي قوله تعالى (واختلاف الليل والنهار) ساق دليلا آخر على رحمانية الله، وبيّن أنه عز وجل –كما خلق السماوات والأرض وجعل الشمس والقمر والنجوم.. كذلك فإنه برحمانيته دبّر تتابع الليل والنهار، ليظهر بعد كل ليلة نهار. فلو لم يأت الليل لاستنزف الإنسان قواه، ولو لم يطلع النهار لصارت حياه الإنسان عبثا. فجعل الله بحكمته العظيمة تتابع الليل والنهار ليأخذ الإنسان نصيبه من الراحة وإنعاش قواه واستردادها تماما.. ليكون قادرا على العمل النافع طول النهار.

كما أنه تعالى بذكر الليل والنهار أشار إشارة روحانية إلى أنه كما دبّر بخلق النهار تبديدَ الظلمة المادية. كذلك جعل نظاما روحانيا لتبديد الظلمات الروحانية. ومن وسائل ذلك أن ملائكة الله تحضّ القلوب على فعل الخير، وتحاول إنقاذها من الظلمات. ولكن عندما تُرخي الظلمات سدولها على معظم الناس، ولا تؤثر فيهم التحريكات الملائكية، وإنما يستولي الشيطان عليهم.. فإن الله يبدد هذه الظلمات بإرسال أنبيائه ومأموريه، إن هؤلاء يكونون كالشموس والأقمار للعالم الروحاني، ويكون المؤمنون بهم كالنجوم لهداية العالم. إذن فبقوله تعالى (اختلاف الليل والنهار) ينبه إلى فيضانه الرحماني ويقول إن ملائكته وأنبياءه ومأموريه والمجددين والأولياء يُخرجون الناس من الظلمات إلى النور وينجّون العالم من الدمار والهلاك.

وبقوله تعالى (والفُلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس) أشار إلى أنكم كما لا تستطيعون نقل أمتعتكم من ناحية إلى أخرى عبر البحار إلا بالسفن.. كذلك فإن الله تعالى قد جعل في العالم الروحاني بعض الشخصيات بمثابة السفن لأهل زمنهم. إنهم يترلون بالبركات والأفضال من الله للناس، ويرفعونهم من الأرض إلى الله تعالى، وكما لا يكون الناس بمأمن من أخطار البحر إلا إذا كانوا في سفينة، كذلك لا يحتمي من البلايا والآفات الروحانية إلا الذي يركب سفينة النجاة التي أعدّها مَن بعثه الله في ذلك الزمن منقذا روحانيا.

وقوله تعالى (وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها) إشارة إلى أن الله كما أنزل من السماء ماء لإحياء الأرض من جديد.. كذلك أنزل من السماء الوحي لشفاء غليلهم الروحاني، ولكن الناس للأسف ينظرون إلى المطر المادي نظرة تقدير، ولكن عندما ينزل عليهم مطر الوحي السماوي لا يهتمون للانتفاع به.

ذكر الرسول ﷺ للصحابة ذات مرة حال المنتفعين وغير المنتفعين من مطر الوحي السماوي، وبيّن أن الناس على ثلاثة أقسام فقال ﷺ (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ(أي طيبة) قَبِلَتِ

الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ(أي صلبة) أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ) (البخاري، العلم).

ووضّح النبي ﷺ أن المثال الأول ينطبق على العالم العامل الذي يتعلم العلم ويعمل به؛ ينتفع به كما ينفع به الآخرين ويجعلهم عاملين به مثله، والمثال الثالث لشخص ليس عالما ولا معلما.. فلا ينتفع بنفسه ولا ينفع الآخرين. ولم يذكر النبي صاحب المثال الثاني لأنه لو تدبر الإنسان في المثالين لعرف أن المثال الثاني ينطبق على شخص يعلّم الدين ولا يعمل به. درس علوم الدين ووقف على تعاليمه، ولكنه لا يتدين به. يبلغ الناس بما قال الله ورسوله، وهكذا يفيدهم وينفعهم، ولكن لا ينتفع من هذا العلم لنفسه.

والحقيقة أنه كلما يبعث في الدنيا نبي من أنبياء الله ينقسم الناس إلى هذه الأقسام الثلاثة: قسم يعملون بتعاليم الدين وينتفعون بمطر الوحي الإلهي انتفاعا جيدا، وقسم يُعرضون عن وحي الله ويرفضون أنبياءه، وقسم يعرفون تعاليم الدين ولكن يتغافلون ويتكاسلون ولا يعملون بها.

وبذكر المطر هنا يوجه الله النظر إلى أنكم كما تنتفعون بالمطر المادي يجب أن تنتفعوا أيضا من المطر الروحاني الذي نزل على محمد ﷺ، ولا تكونوا كالصخور التي لا تجتذب قطرة من مطر.

كما أشار إلى أنه عندما ينزل مطر السماء فإن الماء الباطني في طبقات الأرض يفور ويرتفع منسوبه في الآبار.. كذلك عندما يترل مطر الوحي الإلهي على أنبياء الله فإن عامة الناس أيضا يَرون الرؤى والأحلام بكثرة وتتجه أنظارهم إلى الله تعالى. وقد حدث هذا في زمننا أيضا، فقد رأى الناس آلاف الرؤى والأحلام الدالة

على صدق المهدي والمسيح الموعود عليه السلام، وأرى أنها لو جُمعت لملأت كتابا ضخما.

ثم إن الله تعالى يوسع دائرة بركات الوحي الإلهي بطريقة أخرى، فإنه سبحانه يلقي نوعا من النور حتى في عقول الذين لم يؤمنوا بأنبيائه، ويصقلها فتسمو أفكارهم وتزداد فراستهم وترقى مواهبهم العقلية بسرعة أكبر من ذي قبل.

وقوله(وبثّ فيها من كل دابة) يشير إلى أن من آيات الله أنه خلق في الأرض أنواعا من الحيوانات والدواب. وبالإضافة إلى الحيوانات الظاهرة أشار أيضا إلى أولئك الذين يكونون بمثابة الموتى قبل بعث الأنبياء، ولا يكون بهم رمق من الحياة الروحانية، ولكن عندما يُنفخ في الصور السماوي يحيا مثل هؤلاء الأموات، ويمشي العرج ويتحرك المفلجون، وهؤلاء المنتمون إلى مختلف الأقطار والشعوب والطوائف، والمؤهلون بمختلف العلوم والفنون والمواهب.. بعدما يلبون نداء النبي يخرجون إلى أنحاء العالم لنشر الدين، ويجذبون إليه آلافًا وملايين بجهودهم التبليغية.. فيكونوا رونقا وبهاء ونصرة للدين. وبناء على ذلك فـ"الدابة" إشارة إلى أولئك المؤمنين الذين يتحركون لجلب البهاء والعمران الروحاني في الأرض، والذين تنتفع منهم الأجيال الحاضرة والقادمة بأنواع المنافع المادية والروحانية.

وفي قوله تعالى (وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض) أتى بدليل على صفة الرحيمية، وبيّن أن ما يُنزل الله من نعم رحمانيته، ينتفع بها الكافر والمؤمن على السواء.. أما في دائرة الرحيمية فعندما يتبارى المؤمن والكافر فإن الله يُعِين المؤمنين على الفلاح، ويخيب الكافرين في نواياهم السيئة.

والرياح هنا رياح مجازية، تهب في أوقات خاصة.. ولا سيما تلك الرياح التي جرت لأجل الرسول ﷺ والتي نشرت أنواره في كل العالم. فمثلا في غزوة بدر، عندما ألقى النبي ﷺ حفنة من الرمل والحصى جرت ريح عاصفة بفضل من الله تعالى، وناصرت المؤمنين، وأفسدت الأمور على الكفار حتى انقلب الموقف في ساحة

الحرب في وقت قصير، وبدأ كبار قادة الكفار يقعون صرعى ملطخين بدمائهم على الرمال، وولّى جنودهم المتسلحون المجربون مُدبِرين من ساحة القتال (السيرة النبوية لابن هشام، وقعة بدر).

وفي غزوة الأحزاب حدث مثل ذلك، وأجرى الله رياحا عاصفة أجبرت الكفار على الفرار في فزع وفوضى، ورد في التاريخ أن ريحا شديدة هبّت في الليل فتزعت خيامهم، وألقت قدورهم، وأخمدت نيرانهم. وكان من عادة العرب إشعال النار طول الليل تفاؤلا، فإذا خمدت نار أحدهم تطيّر وظن أنه يوم نحس. فقامت بعض القبائل بالرحيل والفرار بناء على هذه العادة والظنون. ولما رآهم الآخرون وظنوا أن اليهود قد اتفقوا مع المسلمين وغدروا بهم، فجمعوا متاعهم على عجلة وفروا من الموقع. وكان أبو سفيان مستلقيا في خيمته لما بلغه الخبر، فقام فزعا وركب بعيره وأخذ يحثه على الإسراع وهو مقيّد، فنبّهه بعضهم إلى خطئه، ففك عقال البعير وفَرّ مع أصحابه من الميدان !(المرجع السابق، غزوة الأحزاب).

وإلى جانب تصريف الرياح هذه، نزلت الأمطار تأييدا للنبي ﷺ. ففي وقعة بدر عندما كان الصحابة بحاجة ماسة للماء أنزل الله المطر، فتيسر الماء للمسلمين، وتماسكت الأرض الرملية تحت أقدامهم، فيسرت لهم السير والقتال عليها. أما الأرض التي كان عليها الكفار فكانت صلبة، فأصبحت بالمطر زلجة فلم تثبت عليها أقدامهم (المرجع السابق، غزوة بدر).

كذلك نزلت الأمطار في المدينة لأيام بفضل دعاء الرسول ربَّه عز وجل. ولما غزر المطر وأحدث المشاكل وهدد بالضرر.. دعا النبي ﷺ، فتوقف المطر على المدينة وأخذ يسقط حولها (البخاري، كتاب الدعوات). ولما اشتد المكيون في معارضة النبي وطالبوه بالعذاب، دعا النبي عليهم: اللهم خذهم بسنين كسنيِّ يوسف. فحدثت لهم مجاعة شديدة بالحجاز سبع سنين حتى اضطر الناس إلى أكل الميتة والعظام والجلود، وتدهورت صحتهم حتى كانت عيونهم ترى دخانا. فجاءوا النبي ﷺ والتمسوا منه الدعاء لمضر [قبائل الحجاز]كي يزيل الله عنهم شدتهم. فدعا

النبي لهم فأنزل الله الأمطار وزالت المجاعة. وفي إحدى الروايات أن أبا سفيان بنفسه جاء النبي ﷺ قائلا: "أي محمد، إن قومك هلكوا، فادع الله أن يكشف عنهم العذاب، فدعا". (البخاري، كتاب التفسير، سورة الدخان).

تثبت كل هذه الأمور أن الله سخر لرسوله الرياح والسحب، ويفعل الله ذلك أيضا للمؤمنين الكُمّل. صحيح أن الرياح تجري دائما، ولكن رياح بدر والأحزاب دلّت أنها جاءت بشارة للمؤمنين وعذابا للكافرين. وكذلك تنزل الأمطار دائما، ولكن أمطار بدر والمدينة بيّنت أنها كانت مسخّرة، والأمطار والرياح المسخرة دائما تأتي لتأييد المؤمنين وإذلال الكفار. وكل هذه الأمور تحدث تحت قدر خاص من الله تعالى.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٦)

شرح الكلمات

أندادا–جمعُ نِدٍّ وهو المِثل، ولا يكون إلا مخالفا. يقال: ما له ند.. أي ما له نظير(الأقرب).

لَوْ يَرى –"لو" أداة شرط جوابها محذوف تقديره: لو يرى الذين ظلموا.. يعلمون.

التفسير: وردت في القرآن أربع كلمات تصف آلهة المشركين: الند، الشريك، الإله، الرب. وهذه الصفات الأربع تدل على أربعة أنواع من الشرك.

فالند هو الشريك في الجوهر.. أي ليس ما يُعبد فقط، بل يُعتبر إلها في ذاته ووجوده كما لله ذات ووجود.

والشريك ما يعتبر شريكًا في الأعمال والصفات مع الله تعالى.. سواء كلها أو بعضها، وسواء عُبد مع الله أم لم يُعبد.

والإله هو ما يعبدونه. وهو أوسع معنىً من النِّد.. لأنهم يعتبرون إلها ما لا يعتبرونه شريكا في الجوهر مع الله. ومثال ذلك آلهة الهندوس.

والرب هو ما يقبلون قوله بدون تمييز بين خير وشر، وبدون أن يعبدوه، وبدون أن يعتبروه شريكا في صفات البارئ.

وأمثلة هذه الأنواع الأربعة من الشرك أيضا موجودة في الدنيا. فالأمة المسيحية تعتبر المسيح –عليه السلام – إلها ندًا لله تعالى، فهم لا يعتبرونه إلها لاتصافه بالألوهية، وإنما إلها باعتباره أزليا أبديا، وشريكا في الجوهر مع الله تعالى. فهم يعتقدون أن جميع الصفات الإلهية التي لا بد من تواجدها في الله من حيث الذات لموجودةٌ في المسيح.

ومَثل آخر لذلك مثل الفُرس المجوس الذين اعتقدوا بوجود إلهين: "يزدان" إله النور، و"أهرمان" إله الظلام (موسوعة الأديان والأخلاق، تحت اسم الزردشتية)

(Encyclopedia of Religions and Ethics-under Zoroasterianism)

وهناك بعض الناس يشركون أشياء في صفات الله تعالى وإن كانوا لا يعبدونها، ويعتبرونها متصرفة في بعض الأمور.. كما كان العرب يظنون الجن يأمر ويتصرف مثل الله، و لم يكونوا يعتبرونها آلهة أو أربابا، وإنما كانوا يعتقدون أن الجن الفلاني هو سيد الوادي المتصرف فيه، فكانوا إذا مروا بالوادي يحترمونه ويخافونه كخوف الله، ولكنهم ما كانوا يعبدونه مع الله تعالى (القرطبي، سورة الجن).

وكما ذكرتُ، فإن كلمة إله أوسع وأعم من كلمة ند. وبعض الناس يعتقدن أن بعض الأشياء آلهة مع الله، فيعبدونها ولكنهم لا يعتبرونها شريكة في الجوهر والذات مع الله تعالى.. مثل الهندوس الذين يَعبدون آلهتهم ولكنهم لا يعتبرونها متصرفة في الأمور وشركاء في الجوهر مع الله. وكذلك يعبد بعضهم الآباء والأمهات أيضا، ولكن لا يعتبرونهم شركاء أو أندادا لله تعالى.

والاسم الرابع هو الرب.. ومعناه الأصلي من يخلق ويربي الشيء إلى أن يصل الكمال. ولكن في الاصطلاح الديني يُطلق الرب على كل مُرَبٍّ أو سيد، يتبعه

الناس بدون تمييز بين خير وشر، كما يفعل الناس بشخصيات صالحة كبيرة من الأسلاف. الإسلام يبيح اتباع الناس في الأمور الاجتهادية، ولكن إذا أطاع الإنسان أحدًا خلافا للنصوص الصريحة من الله تعالى وأنبيائه فكأنه يعتبره ربًا، وقد ذكر القرآن هذا في قوله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) (التوبة: ٣١).

وكلمتا الإله والرب تستخدمان أيضا لله تعالى، أما الند والشريك فللآلهة الباطلة، ويتبين من هذا التفصيل أن كلمة الند تستخدم لمن يعتبرونه شريكا في الجوهر، وكلمة شريك تستخدم لمن يعتبرونه شريكا في الصفات، سواء عبدوه أم لا. وكلمة الإله "تستخدم لمن يعبدونه سواء اعتبروه شريكا في الجوهر أم لا. وكلمة: الرب يراد بها الشخصيات التي يتبعونها بدون تمييز بين خير وشر، معرضين عن أوامر الله ورسوله.

وقد ذُكرت هذه الأنواع الأربعة للشرك في آية واحدة: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) (آل عمران: ٦٥). فبقوله تعالى (ألا نعبد إلا الله) أولا، (ولا نشرك به شيئا) ثانيا (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) ثالثا.. نفي الأنواع الثلاثة من الشرك: الإله، والشريك، والرب.. نفيا صريحا. ولكن هناك نفي ضمني للند.. لأن الند متضمن في الأنواع الثلاثة.. أي لا بد له من أن يُعبد ويُشرك في الصفات ويطاع. وما دامت عبادة غير الله، والإشراك في صفاته، وطاعة غيره.. تُعد إثما فقد تمّ نفي الند أيضا تلقائيا. ثم إن كلمة (ألا نعبد إلا الله) أيضا تنفي الند.

يريد الإسلام أن يسمو بالإنسان إلى أعلى مقام في عقيدة التوحيد، وهو بإيجاز: ألا يشرك الإنسان أحدًا في الجوهر مع الله، ولا يعتبر أحدًا شريكا له في الصفات والأفعال.. سواء عبده أم لم يعبده، ولا يعبد أحدًا إلا الله، ولا يطيع أحدًا فيما يخالف ما أمر الله به ورسوله.. لأن هذه الأمور الأربعة منافية للتوحيد الحقيقي.

قوله تعالى (يحبونهم كحب الله). له معنيان: الأول-أن الحب الذي لا ينبغي إلا لله وحده يصرفونه إلى أندادهم. والثاني – أن الحب الذي يدعونه لله يكنون مثله

لأندادهم. أي أن قلوبهم رغم ادعائهم حب الله خاليةٌ من حب حقيقي لله. والمعنى الأول هو أن حبهم متساو لله وللأنداد.. والمعنى الثاني هو أن ادعائهم حب الله ادعاءٌ فارغ كاذب، لأن هناك بونا شاسعا بين الحب لله والحب للأنداد.

ولقوله تعالى (والذين آمنوا أشد حبا لله) أيضا معنيان: الأول-أن المؤمنين يحبون الله أكثر من حب المشركين لله، أو من حب المشركين لأندادهم. والثاني -أن حب المؤمنين لله يفوق حبهم لكل ما سواه؛ وإذا تصادم الحُبّان -حبّهم لله وحبّهم لغيره -فدائما يكون حبهم لله هو الأقوى والأهم.

ولقد فسر القرآن في موضع آخر هذا الحب بكلمات أخرى: (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (التوبة: ٢٤).

فمن علامة الحب الكامل أن يضحي الإنسان لأجل حبيبه بكل غالٍ ورخيص، وإلا فادعاؤه بالحب كلام فارغ لا يجديه شيئا. كل إنسان يقول إنه يحب الله ورسوله، بل ليس هناك مسلم واحد يقول إنه لا يحب الله ورسوله؛ ولكن يجب أن يرى ما هو تأثير هذا الادعاء في أعماله وجوارحه وأقواله. نجد البعض يدّعون حب الرسول ﷺ حبا شديدا، فيقرءون ويسمعون القصائد في مدحه، بل يقرضون الشعر في الثناء عليه، ولكنهم لا يلقون بالاً فيما يتعلق بطاعة ما أمر به الرسول ﷺ. ويدّعون بحب الله، ولكنهم لا يسعون للقائه، في حين أن المرء إذا جاءه قريب أو صديق فإنه يترك أعماله ويسرع للقائه؛ ولو سنحت له الفرصة للقاء أحبائه وأصدقائه غمرته الفرحة؛ ولو تمكن من زيارة أحد الحكام لارتفع رأسه، ولكنهم يدعون بحب الله ومع ذلك لا يقتربون من الصلاة، أو يصلون ولكن لا يواظبون على الصلاة، وإذا واظبوا عليها أدُّوها بعجلة فلا يعرف أحدهم متى سجد ومتى رفع.. يسجدون كنقرات الدجاجة دون خشوع ولا خضوع. ومع أن الله قد أعلن أنه تعالى هو الجزاء للصائم.. ولكنهم رغم ادعائهم حب الله لا يحاولون التمسك بأهدابه والتقرب إليه. ويتظاهرون بحب الله مع ذلك يهضمون حقوق الناس، ويكذبون،

ويتهمون، ويغتابون. يدّعون عشق الله، ولكن لا يقرءون القرآن الكريم ولا يتدبرون فيه. فالإدعاء بالحب شيء، والحب الحقيقي شيء آخر. يصرح القرآن الكريم أن الإنسان لا يمكن أن يكون مؤمنا صادقا ما لم يحب الله حبا عمليا يتضاءل أمامه حبه للوالدين والأولاد والأزواج والإخوان والقبيلة والقوم. لقد قال النبي ﷺ: (ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار) (البخاري، الإيمان).

قوله تعالى (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا) وجّهَ فيه الأنظار إلى أن هؤلاء يعارضون الإسلام اليوم، ويشركون الأصنام مع الله تعالى، ولكنهم لو تصوروا المشهد الذي سوف يرون فيه العذاب لنسوا هذه الأشياء كلها، ولأدركوا أن الإشراك بالله ليس بالإثم الهيّن. إنهم يفعلون ذلك لجهالتهم الآن، ولكن لو تخيلوا المشهد الذي ينكشف فيه ضعف شركائهم ما فعلوا ذلك. وهذا ما حدث يوم فتح مكة، حين رأى المشركون بأعينهم أن أصنامهم لم تنفعهم شيئا، بل حُطمت وألقيت خارج بيت الله تعالى، وتمّ تطهير البيت لعبادة الله وحده.

وقوله تعالى (إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا) قد شرحه النبي ﷺ في حديثه، وبيّن تفصيل العذاب الأخروي الذي سوف يصيب الكفار: إنهم سوف يرون على سبيل التمثيل والمجاز الثعابين والعقارب وغيرها من الأشياء المخيفة (مسند ابن حنبل ج٤، ص١٩١)، وهي في الحقيقة تمثيل لأعمالهم. كانوا في الدنيا يلدغون الناس كالثعابين، ويلسعونهم كالعقارب، ويفترسونهم كالضواري، لذلك يعاقبهم الله بنفس العقاب، ويسلط عليهم الثعابين والعقارب جزاء على أعمالهم.

إن لهذه الآية علاقة عميقة بالتي قبلها، بل كلتاهما تحتوي على موضوع واحد.. وهو أن هؤلاء رغم رؤية البراهين التي تميز بين الحق والباطل، ورغم رؤية كل ذرة من الكون تؤكد وحدانية الله تعالى، ورغم رؤية قدر الله الخاص جاريا في حق المؤمنين.. يجعلون له سبحانه أندادا يحبونهم كحب الله، وهذا دليل على أنهم هالكون.

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٧)

شرح الكلمات:

تبرّأ–تخلص (الأقرب). التبرّي: التقصّي [الابتعاد] مما يُكْرَه مجاورته (المفردات). فالآلهة الباطلة والشخصيات التي كانوا يشركونها بالله سوف تعلن كراهيتها لعابديها المشركين، وتعتبر نفسها بريئة، وتقول إننا لم نفعل مثل هذه الأفعال.

الأسباب –السبب ما يُتوصل به إلى غيره؛ الطريق؛ الحب؛ القرابة (لسان العرب).

التفسير: يقول الله تعالى إنه سيأتي زمن يقول فيه هؤلاء الأنداد: يا رب، لا علاقة لنا بهؤلاء العابدين لنا. وهكذا يُظهرون براءتهم ونفورهم منهم بعد أن رأوا عذاب الله. قوله تعالى (وتقطعت بهم الأسباب).. الباء في بهم تكون بمعنى عن أو تكون للسببية، أو للتعدية. فإذا كانت الباء بمعنى عن يكون المعنى: أن الأشياء التي كانوا يظنون أنهم سيصلون بها إلى الله سوف تنقطع وتضيع، أو أن القرابات والصداقات التي كانوا يعتمدون عليها سوف تنقطع عنهم وتضيع من أيدهم.

وإذا كانت للسببية فالمعنى: أنه من جراء كفرهم تقطّعت أسبابهم ودُمِّروا.

وإذا كانت للتعدية فالمعنى: أن الأشياء التي كانوا يعتبرونها ذريعة للوصول إلى الله هي التي سوف تدمرهم وتقطعهم. ومثال ذلك ما ورد في موضع آخر من القرآن الكريم: (ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) (الأنعام: ١٥٤).. أي تجعلكم تتفرقون وتنحرفون عن الصراط المستقيم، وتؤدي بكم إلى الدمار.

وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٨)

شرح الكلمات:

كرَّة –الكَرَّة: المرّة (الأقرب). الكرّ: العطف على الشيء (المفردات).

فتعني الآية أنهم سيقولون: يا ليت لنا فرصة للعودة ولو لمرة واحدة.

التفسير: يقول الله إنكم تجعلون لله شركاء وتعتبرونهم أندادا له، ولكنكم في الآخرة سوف تتمنون العودة إلى الدنيا وتقولون: كنا نظن أن هذه الآلهة سوف تنفعنا في الوقت العصيب، وها هي قد خذلتنا.. فليتك يا رب، تُرجعنا إلى الدنيا كي نتبرأ منهم كما فعلوا بنا. يقول الله تعالى (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم).. أي ستتحول أعمالهم حسرات عليهم. وتعني كلمة (عليهم) هنا وبال حسراتهم تقع عليهم. هناك من الحسرات ما يقع على الغير، ولكن لن يتضرر من حسراتهم إلا هم.

وإذا كانت كلمة حسرات هنا حالا.. فتكون الرؤية هنا مادية أي رؤية العين، وإذا كانت مفعولا به.. فتكون الرؤية قلبية. والمعنى أنهم يقولون: يا ربنا لو أرسلتنا إلى العالم مرة أخرى مبشرين.. فسوف نملأ الدنيا إعلانا بأنه لا شريك لك.

أما قوله تعالى (وما هم بخارجين من النار).. يجب ألا ينخدع به القارئ فيظن أن أهل النار لن يخرجوا منها مطلقا. فالله تعالى لا يذكر هنا معاملته معهم وإنما يبين حالهم وعجزهم هم عن أن يخرجوا من جهنم بجهودهم الشخصية. ومثال ذلك أن تقول عن مريض: إنه لا يستطيع أن يتحرك خطوة واحدة.. ثم تأخذه إلى المستشفى للعلاج، فهو لم يتحرك بجهده، ولكنك ساعدته ونقلته؛ فضعفه لم يمنع من أن يعينه أحد. فالنفي هنا لخروجهم بأنفسهم، فلو حاولوا أن يخرجوا بقوتهم ما تمكنوا من ذلك.

وقد صرّح الله بذلك في آية أخرى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) (السجدة: ٢١). فلم تقل الآية إن الله لن يخرجهم من جهنم.. وأنه سيعاقبهم عقابا مؤبدا، وإنما لن يَخرجوا منه بجهودهم الذاتيّة.

وبالنسبة للجزاء والعقاب فهناك بون شاسع بين المؤمنين والكافرين. فالجنة حق للمؤمنين كما قال الله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) (التوبة: ١١١).. كأن هذه صفقة تمت بين الله جل جلاله وبين المؤمنين.

صحيح أنه من ناحية المبدأ لا يمكن أن يكون لأحد حقّ على الله، ولكن إذا قال الله إنه حق علي فلا بد أن يعتبر ذلك حقا للعبد على الله. أما الكفار فيقول الله إنهم عندما لا يستطيعون الصبر على عذاب جهنم ويطلبون الخروج منه لن يستطيعوا ذلك. والباء في العربية تفيد التأكيد، فالمراد من قوله تعالى (وما هم بخارجين من النار) أنهم لن يتمكنوا من الخروج من جهنم بجهودهم الشخصية أبدًا. نعم، عندما يريد الله إخراجهم، فإنه يخرجهم منها، كما ورد في الحديث النبوي: (يأتي على جهنم يوم ليس فيها من بني آدم أحد، تخفق أبوابها (كنز العمال، كتاب القيامة).

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالا طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٩)

شرح الكلمات:

طيِّبا-من طاب يطيب. الطيب: الحلال. يقال: مال طيب أي حلال (الأقرب).

الطيب ما تستلذه الحواس والنفس (المفردات). فالآية تعني: كُلوا ما هو حلال شرعا وما هو لذيذ أيضا.

خُطوات-طُرُق وسبل، ومفردها خطوة.. وهي ما بين القدمين من المسافة (الأقرب).

التفسير: بداية من هذه الآية تناول الله بيان الجانب الثاني من النبأ الإبراهيمي.. (يعلِّمهم الكتاب والحكمة)، أي أن ذلك النبي سوف يوقفهم على أسرار الشريعة. فتناول القرآن الكريم أولا –أكل الحلال والطيب، لأن أعمال الإنسان تابعة للحالة الذهنية، وهذه تتأثر بالغذاء.

وقوله تعالى (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا).. يعني لا تكتفوا بالنظر هل ما تأكلونه حلال أم لا، بل يجب أن تروا أهو طيب أم لا. فإذا كان أكل شيء لا يناسبكم.. سواء لأنه مضر بصحتكم، أو لم تتعودوا على أكله بسبب ظروف بيئتكم، أو أن طبعكم لا يميل إلى أكله.. فلا تأكلوه لمجرد أن الشريعة أحلَّته. لا

تنظروا إلى الحل والحرمة فقط، بل يجب أن تختاروا من الطعام ما يوافق طبعكم وأحوالكم وعاداتكم ولا يضركم. مثلا، إذ كان أحد مصابا بالزكام والسعال فإن أكل الأطعمة الحامضة قد يزيد مرضه، وإذا كان يعاني من الإسهال فلا يتناول الخبز واللحم، أو إذا كان مصابا في كبده فلا يأكل طعاما يسبب الإمساك والغازات.. فإن هذه المأكولات وإن كانت حلالا فهي ليست طيبة له مع هذه الأمراض، لأنها سوف تضره. وقد جمع الله هنا الطيب والحلال لبيان أن من واجب المؤمن ألا يأكل الحلال فقط.. بل الطيب أيضا.. فلا يأكل ما يكون فاسدا ضارا بالصحة، أو يسبب ثقلا لمن يأكل معه.. أي يسبب نفورهم أو تقززهم.

قوله تعالى (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أي لا تسيروا في الاتجاه الذي يسير فيه الشيطان، فهو عدوكم.. يجب الابتعاد عنه.

بعد الأكل والشرب ذكر الشيطان ليشير إلى أن الذي لا يأكل الحلال، ثم لا يختار الطيب من الحلال.. فلا بد أن يتبع الشيطان، لأن ما يأكله الإنسان من غذاء يتقوى به الجسم ويتأثر. والجسم الذي يتهيأ ويتأثر بالحرام الضار لا بد أن يدفع بالإنسان إلى الشر لا إلى الخير.

إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (١٧٠)

شرح الكلمات:

السوء –كل ما يغُمُّ الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجية (المفردات).

الفحشاء–الفحشاء والفاحشة: ما يشتد قبحه من الذنوب، وقيل: كل ما نهى الله عنه؛ والبخل في أداء الزكاة (الأقرب). الفُحش والفحشاء والفاحشة ما عظُم قبحه من الأفعال والأقوال (المفردات).

التفسير: إن اتباع الإنسان خطوات الشيطان يوقعه في مختلف السيئات مثل سوء الظن والكذب والبغض والجهل والكسل والغفلة والجبن والكِبْر والديوثية (عدم

الغيرة وفقدان الحياء) والكفران وغيرها، وكل هذه المعاصي يتضرر بها الإنسان نفسه، وقد أشير إليها بكلمة السوء.

وإذا لم يصلح الإنسان نفسه فإن الشيطان يدفعه إلى ارتكاب الفحشاء.. أي المعاصي التي يتضرر بها الآخرون مثل الخيانة والاتهام والظلم والخداع والقتل والسرقة والضرب والسب والشتم ومساندة الباطل والرشوة وغيرها، وكلها جرائم تتعلق بالآخرين وتصيبهم بالأضرار.

وعندما يزداد في المعاصي والسيئات فإن الشيطان يدفعه لمبارزة الله تعالى أو يسلبه الحياء فيرتكب السيئات أمام الناس بلا خجل؛ ويفتح فاه طعنا في أوامر الله؛ أو يفتري على الله.

فكأن الشيطان يدفعه أولا إلى ارتكاب ما يضر به نفسه، إلى أن يقل فيه الحياء، فيدفعه إلى ارتكاب شرور يتضرر بها الآخرون، ثم يزيده سوءا، فيتلفظ بما يُعتبر انتهاكا صارخا لحرمة الله تعالى، وسخرية بتعاليمه ودينه.. وهكذا يدفعه إلى جهنم بالتدريج. إن الشيطان لا يدفع الإنسان إلى ارتكاب الكبائر مرة واحدة، بل تكون وساوسه خطوة خطوة.. فأولا يحضه على ارتكاب خطية صغيرة، ثم يأمره بعدم الحياء، ثم يدفعه للافتراء على الله.. فكأنه يبدأ مع الإنسان بالصغائر وينتهي به إلى الكبائر.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ(١٧١)

التفسير: لقد بين هنا أن من نتائج اتباع الشيطان أنه إذا قيل لمن يتبعونه: أطيعوا الله، يصابون في عقولهم لدرجة أنهم يقولون: بل سنتبع ما كان عليه آباؤنا. عندما بُعث النبي ﷺ عارضه أهل مكة معارضة شديدة. لماذا؟ لأنهم قالوا: أنترك الدين الذي كان عليه آباؤنا؟ وكأنهم لم يكونوا ينظرون إلى الحُسن الذاتي في الشيء وإنما

كانوا ينظرون إلى الحُسن العُرفي الموروث. ومع أن هذه الأمور كانت جهالة إلا أنهم ضحّوا لأجلها بأموالهم وعزهم وأهليهم لتبقى لهم هذه الأشياء من آبائهم.

وردّ الله على ذلك: (أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون).. هل تتبعونهم وإن كانوا أغبياء جهلاء؟ إن آباءكم هلكوا بسبب جهلهم وغبائهم، فهل تريدون أيضا الهلاك باتباع خطواتهم؟

نفس هذا العائق يحول دون انضمام الناس إلى جماعتنا في أغلب الأحيان. يقولون: هل نترك ما كان الناس يتبعونه لقرون؟ هذا صعب جدا. فهذه الآية تقدم أكبر ما يثيره معارضو الإسلام من اعتراض: لن نتبع إلا ما وجدنا عليه آباءنا.

وليس المراد من (قالوا) أنهم بالضرورة يقولون هذا بلسانهم، وإنما هناك من لا يتلفظون بهذا القول، ولكنهم مستمرون في الرفض للسبب نفسه. فالقول ورد هنا مجازا كما ورد في العربية: امتلأ الحوض وقال قطْني (الأقرب).. أي قال بلسان الحال قد اكتفيت. كذلك هناك من بلسان حالهم يقولون: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا.

يقول الله: إذا كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون.. فهل يستمرون في اتباعهم. يتبع الإنسان غيره لسببين: إما أن يكون عاقلا جدا. أو نال الهدى من الله تعالى. فهل يتبعه رغم انعدام الأمرين فيه؟ إن تعاليم آبائكم ينقصها الأمرين، فلا هي تصمد للعقل، ولا تؤيدها شهادة السماء.

والعجيب أن الناس لا يختلفون مع آبائهم في أمور الدين، ولكنهم في الأمور الدنيوية يختلفون معهم. هناك آلاف الأمثلة لذلك.. حيث لا يتبع الأبناء آباءهم في أمور الدنيا، وإنما ينظرون إلى مصلحتهم ومنفعتهم. كل يوم يركبون القطار ولا يقولون إن آباءنا كانوا يركبون الحمير.. فلماذا نركب القطار؟ كما لا يتبعون الآباء في الأمور العقلية والمنطقية والعلمية.. وإنما يستفيدون بنور العلوم الجديدة ويتبعونها. ولكن فيما يتعلق بالدين فيعتبرون آباءهم عقلاء نوابغ، وهكذا يناقضون أنفسهم بأنفسهم. وعندما تُقدِّم لهم مثل هذه الأدلة الواضحة الجلية لا يلقون لها بالاً ويعرضون عن الحق.

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ(١٧٢)

شرح الكلمات:

ينعِق –نَعَق الراعي بغنمه: صاح بها وزجرها. نعق الغراب: صاح. نعق المؤذن: رفع صوته بالآذان (الأقرب).

نداء –النداء: رفع الصوت وظهوره (المفردات).

صمّ– جمع أصَمّ، ومن معانيه الرجل الذي لا يُطمع فيه (الأقرب).

التفسير: في هذه الآية تمثيل وتشبيه مركب. حُذف فيه المضاف وتقديره (ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق). فالرسول ﷺ هو الداعي للكفار، ومثله كمثل الراعي يصيح بغنمه لتأتي إليه، ولكنها لا تسمح ولا تفهم من صوته إلا النداء. كأن هؤلاء الكفار يسمعون دعوة محمد صباح مساء، ويتلى عليهم وحي الله في كل حين.. يدعوهم إلى الصلاح والتقوى وخشية الله، ولكنهم يسمعون الكلمات كالحيوانات، ويصل الصوت إلى آذانهم دون أن يدركوا حقيقته، فلا ينفكّون يسيرون سيرتهم الأولى.

وهنا ينشأ سؤال: هل من الضروري أن يتم التطابق الكلّي بين المشبَّه والمشبَّه به؟.. وهو غير موجود هنا. والجواب أنه ليس ضروريا أن يكون في التمثيل المركب تطابق تام بين أجزاء المشبه والمشبه به، وإنما يكفي لصحته أن يكون هناك مشابهة خاصة في أمر بين المشبه والمشبه به. وهذا ما قاله سيبويه (إملاء ما مَنَّ به الرحمن، تحت هذه الآية).

وهناك سؤال آخر: إذا كان مثال الكفار كمثال الغنم، فإن الغنم تسمع نداء الراعي، والكفار يسمعون نداء النبي ﷺ.. فلماذا سماهم صمًّا؟

الجواب: ليس المراد أنهم صمّ في الظاهر، وإنما هم صمّ من الناحية المعنوية، أي أنهم لا يستطيعون سماع الحق. وكلمة (بُكم عمْي) أيضا توضح هذا المعنى.. فإنهم بُكم أي لا يستطيعون قول الحق، وعُمْي أي لا يستطيعون رؤية الحق، وهم بالمثل صمّ

أي لا يستطيعون سماع الحق. فكأنهم يسمعون الصوت ولكنهم لا يدركون حقيقته، ولا يحدِثون بحسب ذلك تغيرا في أنفسهم. يسمعون الكلمات فقط ولا يفهمون الحقيقة، وعدم فهم الحقيقة لا ينفي سماعهم الدعاء والنداء.

وهناك معنى آخر وهو أن (صم) هنا بمعنى من لا يُرجى منهم نفع ولا فائدة. وهذا المعنى موجود وثابت لغة، كما ورد "الأصم": الرجل الذي لا يُطمع فيه.

والمعنى الثاني للآية أن مثل الكفار كمثل الحيوانات التي يدعوها داع، فتجري إليه بسماع صوته دون أن تدرك المراد من صوته. فهُم يتبعون بعضهم البعض اتباع الغنم دون تدبر في دعوة الداعي: أهي نافعة لهم أم ضارة. ينظرون فقط إلى زعيمهم أو رئيسهم أو قبيلتهم، وبعد ذلك يُغلقون كل باب للتعقل والتدبر مقلدين تقليدا أعمى. وكأن عندهم الآذان، ولكنهم لا يدركون ما إذا كان ما يدعون إليه مكان هلاك ودمار أم مكان أمن وسلام لهم. وعندهم الألسن، ولكنها فقدت الجرأة على قول الحق. ولهم العيون، ولكنهم لا يبصرون بها طريق السلامة والأمن.

المعنى الثالث للآية أن مثل هؤلاء الكفار كمثل الذي يصرخ ويصيح ويدعو الأصنام لنصرته، ويكون صراخه إما بالدعاء أو النداء. والدعاء ما يسمع من الصوت أو لا يسمع، والنداء ما يسمع.

يقول الله إن الأصنام التي يدعونها لنصرتهم لا تسمع دعاءهم ولا نداءهم، وكأن عمل هؤلاء الكفار هو مواصلة الدعاء والنداء.. وإلا فإن ما يدعونه لا يسمع لهم دعاء ولا نداء؛ فلا فائدة هناك من دعائهم. وفي هذه الصورة تعتبر (إلا) زائدة.. وتقدير الجملة: ينعق دعاء ونداء بما لا يسمع.. أي أن هذه الأصنام لا تسمع مطلقا.. ولكنهم لا ينفكون يدعونها وينادونها.

وبالنظر إلى هذا المعنى ينشأ سؤال: إذا كانوا يصرخون فكيف قيل إنهم بُكْم؟ والجواب أنهم بكْم بمعنى أنهم لا يعترفون بالحقيقة. والدليل على ذلك كلمتا (صم وعمي) فكما يعني الصم من يغلقون آذانهم عن سماع الحق والعمي من لا يبصرون الحق، كذلك البكم يعني أنهم من الناحية الروحانية بكم، ولا يستطيعون قول الحق

علنا. لو كانت كلمة "بكْم" وحدها لصح الاعتراض، ولكن كلمتي "صم وعمي" توضحان المعنى الصحيح.

الترتيب والربط:

وعلاقة هذه الآية بالتي قبلها هي أن الأولى تقول (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا).. فكأن دعوة محمد إياهم كدعوة أحد الحيوانات. إنهم يسمعون الصوت ولا يرون ضرورة تلبية هذا النداء، وإنما يتبعون آباءهم باستمرار. وهذا بناء على المعنى الأول للآية.

وبناء على المعنى الثاني للآية تكون علاقتها بالتي قبلها أن الله قال في الأولى (أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون).. أي أنكم تتباهون باتباع آبائكم، ولكنهم ما زالوا يصيحون ويصرخون أمام الأصنام و لم تُجْدهم شيئا. فإصراركم (بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا) كمثل الذي ينادي الأصنام ولكن لا يجديه نداؤه نفعا ولا يتلقى جوابا.. فنداؤكم وصراخكم أمام أصنامكم اتباعا للآباء لن ينفعكم أبدا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ(١٧٣)

التفسير: كما سبق أن ذكرنا فإن الشريعة الإسلامية لا تأمر بأكل الحلال فقط، بل بأكل ما هو طيب منه.

كذلك فإنه لم يضع إزاء الحلال حراما، بل اعتبر بعض الأشياء مكروهة، وكره للمؤمنين استخدامها. وكأن هناك أربعة مدارج يجب اعتبارها: أولها الطيب، والثاني الحلال، والثالث الحرام، والرابع المكروه. يرتقي من الحلال إلى الطيب، وينحط من الحرام إلى المكروه. فهذه ميزة تميز الإسلام عن سائر الديانات، فهي تحدثت عن الحلال والحرام فقط، ولكن الإسلام –فضلا عن بيان الحلال والحرام – يذكر أن هناك أشياء طيبة وأخرى كريهة، ويبين ما هي التي تحل في بعض لأحوال وإن كانت حرامًا، وما هي التي تحرم في بعض الأحوال وإن كانت حلالا. وهكذا

يفتح بابا لطيفا للتمييز بين الإثم والسيئة. فمثلا شريعتنا تنهى عن إيذاء الآخرين. فلو تناول أحد ما هو حلال ولكن يسبب أذى للآخرين أصبح تناوله حراما. كما قال النبي ﷺ (من أكل من هذه الشجرة –يعني الثوم –فلا يأتين المساجد) (مسلم، كتاب المساجد). وفي حديث آخر بين النبي ﷺ سبب ذلك فقال (إن الملائكة تتأذى مما تتأذى منه الإنس) (المرجع السابق). تبين من ذلك أن الثوم وإن كان أكله حلالا إلا أن النبي ﷺ نهى عن أكل الثوم والبصل وما يشبههما عند الذهاب إلى المساجد.. حتى أنه نهى آكله من أداء الصلاة في المسجد. وطبعا لن يترك الصلاة بحال، وإذا لم يصلها في المسجد فليصلها في البيت، ولكن مخافة أن يؤذي الآخرين أمره النبي ﷺ بالامتناع عن العبادات الاجتماعية.

فمن ميزات الإسلام الكبرى التي لا يبارى فيها أنه–علاوة على بيان مسائل الحل والحرمة–بين أن الحلال أدنى درجة بين المأكولات، وأن المكروه أدنى درجة مما هو محرم. فعلى المؤمن ألا ينظر إلى الحلال والحرام فقط، بل عليه أن يسلك سبلا دقيقة للتقوى، فيختار الطيب من بين الحلال، ويبتعد عما هو مكروه منها.

وهنا لم يذكر الله الحلال بل اكتفى بقوله (طيبات)، ذلك أن الله يخاطب هنا المؤمنين من الطراز الأول. أما قبله في قوله تعالى (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا..) فبما أن القرآن لا يخاطب الكفار في المسائل التفصيلية ولا يأمرهم فيها، فالمراد بالناس هناك المؤمنون العاديون المائلون إلى الأهواء الطبيعية، ونظرا لضعفهم قال (كلوا مما في الأرض حلالا طيبا). فهؤلاء يمكن أن لا يحددوا أنفسهم بالطيبات فقط بل ينحصروا في دائرة الحل والحرمة ولا يتحملوا قيودا. أما في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) فخاطب المؤمنين من الدرجة الأولى، ووصاهم أن يأكلوا الطيبات مما رزقهم. ولذلك قال في الآية الأولى أن نتيجة الامتثال لأمرنا هو اجتناب خطوات الشيطان، أما هنا فقال لو أكلتم من طيبات ما رزقناكم وفقتم في أداء الشكر الله تعالى.. أي توفقون للقيام بأعمال صالحة تجذب أرواحكم إلى عتبة الله تعالى، كما صرح بذلك في موضع آخر: (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا) (المؤمنون: ٥٢).

كأن الإسلام يعترف بتأثير الغذاء على الأعمال والأخلاق الإنسانية اعترافا بينا، وأمر المسلمين أن يضعوا هذا في الاعتبار دائما، فيُؤْثروا أكل الطيبات حتى تعتدل أخلاقهم، فلا يُرى فيها أي اعوجاج. وعندما يقتصر الإنسان في طعامه وشرابه على الطيبات فقط.. فلا ينتهي عما نهى الله عنه فحسب، بل يوفق أيضا للقيام بالصالحات. فعلى المؤمن كامل الإيمان ألا يأكل كل حلال، بل عليه أن يهتم بأكل ما هو طيب منه.

ثم إن الله اكتفى هنا بقول (الطيبات)، لأن الحلال متضمن فيها.

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٧٤)

شرح الكلمات:

الميْتة – ما لم تلحقه الذكاة، والحيوان الذي يموت حتف أنفه (الأقرب).

الدم–المراد هنا الدم المسفوح الذي يسيل عند الذبح، وليس ما بقي داخل الذبيحة.

أُهِلَّ–مبنى للمجهول من أَهَلَّ، يقال: أهلّ الهلال وأُهِلّ: ظهر وطلع. أهلّ القوم الهلالَ: رفعوا أصواتهم عند رؤيته. أهلّ الصبي: رفع صوته بالبكاء. أهلّ الرجل: نظر إلى الهلال. أهلّ **الشّهرُ**: ظهر هلاله. أهلّ السيف بفلان: قطع فيه. أهلّ العطشان: رفع لسانه إلى لَهَاته ليجتمع له ريقه. أهلّ الله السحابَ: جعله ينهل أي المطر. أهل الشهر: رأى هلاله. أهل الملبي: رفع صوته بالتلبية. يقال: أهلّ المُحْرِم بالحج والعمرة: لبى ورفع صوته. أهلّ فلان بذكر الله: رفع صوته به عند نعمة أو رؤية شيء يعجبه. أهلّ بالتسمية على الذبيحة "قال باسم الله". وما أُهِلّ به لغير الله: ما نودي عليه بغير اسم الله عند ذبحه (الأقرب).

باغٍ–اسم فاعل من بَغى يبغي. البغي: الظلم؛ الجرم والجناية؛ العصيان؛ كل مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء. والباغي: الطالب؛ الظالم؛ العاصي لله والناس (الأقرب).

عادٍ–العادي الذي يتجاوز الحدود أي أنه يفرط أو يقصر عن العمل بالقانون (الأقرب).

إثم–المراد هنا العقوبة.. لأنهم في بعض الأحيان يستخدمون السبب مكان المسبِّب، والإثم هو سبب العقوبة لذلك ذكروه. والإثم؛ الذنب(اللسان).

التفسير: يجب أن نتذكر أن ما نهى الله عنه في الشرع الإسلامي هو على قسمين: الأول حرام والثاني ممنوع أو منهي عنه. وكلمة الحرام لغة تشمل النوعين، ولكن القرآن في هذه الآية إنما حرم أربعة أشياء: الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله. وهناك أشياء أخرى نهت الشريعة الإسلامية عن تناولها.. وهي تندرج تحت الممنوعات ولا تندرج تحت الحرام بالاصطلاح القرآني. فقد روي عن ابن عباس قال " (نهى رسول الله ﷺ عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير) (مسلم، كتاب الصيد) وهناك رواية أخرى تقول (نهى عن لحوم الحمر الإنسية) (المرجع السابق). وهذه المنهيات لا تتعارض مع آيتنا الحالية وغيرها من الآيات، فكما أن الأوامر على أنواع: بعضها فرض، وبعضها واجب، وبعضها سُنة، كذلك المناهي على أنواع: هناك المحرمات والممنوعات والتنزيهات. فهناك أربعة أشياء محرمة. أما الباقية فهي ممنوعة. وأما التي تندرج تحت المنع التنزيهي وينبغي على الإنسان تجنبها فهي أكثر من ذلك. والنسبة بين الحرام والممنوع كالنسبة بين الفرض والواجب. فالأشياء التي حرَّمها القرآن حرمتُها أشد نسبيا مما حرمه الرسول ﷺ. وكما بينتُ من قبل فإن مثالها في الأوامر كمثال الفرض والواجب والسنة؛ فالحرام بإزاء الفرض، والممنوع بإزاء الواجب. وكما أن هناك فرقا بين الفرض والواجب فيما يتعلق بالعقوبة إذا تركه أحد، كذلك فإن عقوبة تناول شيء مما نهى عنه القرآن أشد من عقوبة تناول شيء مما نهى عنه الرسول ﷺ. ولكن كلاً من الجريمتين قابل للمؤاخذة، جالب لسخط الله في كل حال. إن تناول أو ارتكاب الحرام يؤثر في إيمان الإنسان ولا بد أن تكون نتيجته سيئة، ولكن تناول أو ارتكاب المناهي الأخرى لا يؤدي بالضرورة إلى الإثم وعدم الإيمان. هناك العديد من الفِرق

المسلمة _كالمالكية مثلا-يأكلون هذه الأشياء بتأويلات مختلفة، ولكن هذا لا يؤثر في إيمانهم، بل لقد وُجد بينهم في الماضي كثير من الأولياء.. ولكنكم لن تجدوا بين من يأكل لحم الخنزير والميتة أحدا من أولياء الله تعالى.

فهناك مدارج للحرمة، وعلاوة على هذه المحرمات القرآنية الأربعة هناك ممنوعات تندرج تحت اصطلاح الحرام أيضا. هذه الحرمة من حيث اللغة ويندرج تحتها كل ما يُنهى عنه ويسمى حراما.. كالأشياء التي نهى عنها الرسول ﷺ. ولكن من حيث الاصطلاح القرآني هناك أربعة أشياء فقط محرمة.

وقد نهى الله هنا عن أكل الميتة، لأن دماء الميتة تحتوي على العديد من السموم. ويغلب الظن في الميتة أنها ماتت بسبب المرض أو التسمم بمادة سامة أو بلسع حيوان سام، أو لبلوغها أرذل العمر، وفي هذه الأحوال كلها لا يصلح لحمها للأكل. أما الحيوان الذي مات بسبب السقوط أو حادث آخر.. فالقاعدة أن الصدمة الشديدة تؤثر في الدم على الفور وتسممه. فلا يصلح للأكل من اللحوم في الحقيقة إلا ما يكون من حيوان مذبوح.. أما غير ذلك فلا بد أن يكون له تأثير سيئ. وهذه ليست بأمور وهمية، بل لقد أثبت الطب الحديث أن كل حيوان مات لتقدمه في العمر أو بصدمة شديدة أو بمرض.. فإن أنواع الجراثيم والديدان تتولد في دمائه. فقد جاء في كتاب Text Book of Medical jurisprudence and Toxicology المعروف في الطب أن الجراثيم تتولد بسرعة في لحم الميت وتنشأ عنها سموم يُطلَق عليها السموم الجيفية أو الجيفين وهذه السموم مهلكة جدا وتأثيرها كتأثير جوز القيء " ptomaines or Cadaverice Alkaloides" والأتروبين (ص ١١٧ ، ١٣٤ ، ٤٥٢ ، ٤٩١ ، ٦١٩ ، ٦٢٠من الكتاب).

كذلك يحتوي الدم على العديد من السموم الضارة بالصحة. يقول علماء الفسيولوجي إن الدم في الجسم الإنساني بمثابة بركة فيها الكثير من السمك والضفادع والديدان التي تتغذى منها وتلقي فضلاتها فيها، ولما كانت هذه الخلايا

الهائلة العدد كلها تسبح فيها وتفسدها.. كان من وظائف الدم أن يأخذ هذه المواد الفاسدة إلى الأعضاء التي تقوم بتصفيتها.

فالدم مليء بأنواع السموم والمواد الرديئة، وقد جعل الله في الجسم نظاما للتنقية، ولكن الدم عندما يخرج من الجسم يصحب معه هذه السموم التي تبقى فيه، ويكون استخدامه ضارا جدا بالصحة. ولذلك يفسد الدم بعد بضع دقائق، بل عندما يتعرض للهواء تنمو فيه الميكروبات بسرعة. ولذلك فإن اللحم الذي يغسل منه الدم يبقى مدة أطول من اللحم الملطخ بالدم؛ وهذا يبين التأثير الضار للدم.

أما لحم الخنزير فيؤثر على جسم الإنسان وأخلاقه تأثيرًا سيئا جدا. إنه يؤثر في الجسم تأثيرا سلبيا لأنه يبقى في الوسخ والوحل، ويميل إلى الرغبات الفاسدة، وهذا يصيب لحمه بأنواع الأمراض. يقول جوناتان نيكولسن Jonathan Nicholsonفي كتابه (لحم الخنزيرSwine Flesh) إنه لدليل رائع ضد الخنزير عندما نقول إن الدودة الشريطية والاسكورفولا والسرطان والتريكينا غير معروفة بين اليهود الملتزمين اللذين لا يمسون لحم الخنزير أبدا.

وإذا لم نسلم بقوله هذا، فمما لا يحوم حوله الشك أن هذه الأمراض توجد في الأمم التي تأكل الخنزير أكثر. هناك مرض مهلك يتولد من أكل لحم الخنزير وهو الدودة الشعريةTrichinosis، وتظهر في المريض بسببه أولا علامات الكوليرا، ثم يصاب بالحمى، ثم يتوجع جسمه، وأخيرا يصاب بالالتهاب الرئوي. وقد جاء في الكتاب المذكور آنفا(Medical jurisprudence أنه لا علاج لهذا المرض.

ومن لحم الخنزير تتولد في الأمعاء ديدان شريطية وتبقى في الجسم لسنين وقد كتب Dr. F. Butler MP. FRCP في كتابه (Practice Of Medecine) أن الخنزير يصاب بهذا المرض بسبب أكله للبراز.

ولكن ما هو أفتك وأخطر، بل الباعث الحقيقي لحرمته.. هو ما يصيب الأخلاق من مفاسد بأكل لحمه. إن الخنزير هو الوحيد بين جميع الحيوانات الذي ترتكب ذكوره اللواط فيما بينها. والذين يتعودون على أكل لحمه يضعف عندهم الحياء ويتصفون بالديوثية. كما أنه حيوان غير شجاع، وإنما متهور طائش.. عندما

يغضب لا يرى يمينا ولا شمالا.. وإنما يهاجم رأسا. وبسبب هذه العادة يصيده الصيادون بسهولة وبسرعة. فعندما يُطلق عليه الرصاص فإنه يغضب ويندفع إلى الصياد رأسا ليهاجمه.. فيقع صيدا سهلا. كما أن الأمم التي تأكل لحم الخنزير لا تتصف بالشجاعة بل تكون متهورة.

ولقد كتب سيدنا الإمام المهدي مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية في كتابه الشهير (فلسفة الأصول الإسلامية) حول حرمة لحم الخنزير فقال:

(ههنا نكتة جديرة بالذكر، وهي أن الله حرم لحم الخنزير وقد ضمَّن اسمه الإشارة إلى تحريمه منذ البداية، فلفظ خنزير مركب من كلمتين: خنز ومعناها فاسد جدا و"أر" أي أرى، فيكون المعنى المركب (أراه فاسدا جدا). فحتى الاسم الذي أطلقه الله على هذا الحيوان منذ الابتداء يدل على خبثه. ومن الاتفاق العجيب أن اسمه في الهندية سؤر وهذا أيضا مركب من كلمتين: سوء و"أر" أي أراه سوءا.

وأما معنى الاسم فاسد جدا فهو لا يحتاج للشرح. منذا الذي لا يدري أن هذا الحيوان أشد حرصا على أكل النجاسات، وأنه فوق ذلك عديم الغيرة ديوث؟ والعلة في تحريمه ظاهرة من أن قانون الفطرة يقضي بأنه لا يكون تأثير لحم هذا الحيوان النجس الخبيث في الجسم والروح إلا خبيثا. وقد أثبتنا فيما مضى أن الأغذية تفعل فعلها لا محالة في جسم الإنسان. فهل من شك في أن تأثير هذا الخبيث يكون خبيثا؟ كما أكد الأطباء اليونانيون ذلك قبل الإسلام.. إذ يرون أن لحم هذا الحيوان يقلل من الحياء ويزيد الديوثية على وجه الخصوص) (فلسفة الأصول الإسلامية، الخزائن الروحانية، شرح الكلمات: ١٠ص٣٣٨).

والشيء الرابع الذي حرّمه هو ما يُذبح إشراكًا بالله تعالى، وما يضحّى به استرضاء لذوات وشخصيات غير الله تعالى. ولما كان هذا العمل انتهاكا لعظمة الله وقداسته إذ يخلعون صفاته على ذوات أخرى، فتناوُل مثل هذا الطعام واللحم يجعل الإنسان عديم الغيرة. والحق أن تناوله دلالة على عدم الطهارة القلبية وقلة الغيْرة.. لذلك حرّمه الإسلام. وهذه الحرمة ليست بسبب مضاره الطبيعية وإنما لمضاره الدينية، لأن الذي يأكل لحم مثل هذه الذبائح لغير اسم الله فإنه يثبت بأكله أنه لا يحب أبدا

توحيد الله. إنه يدعي حبَّ الله في الظاهر، ولكنه في باطنه قد أخفى العديد من الأصنام التي يعبدها. فأكله هذا اللحم ينجّس قلبه ويشبّهه بالمشركين.

يعترض المسيحيون أن القرآن قد حرّم هذه الأشياء مقلدا التوراة (تفسير القرآن لويري، البقرة١٧٥).. ولكن قولهم هذا باطل، لأن هناك العديد من الأشياء التي حرّمتها التوراة ولكن القرآن لم يحرمها.. مثلا: حُرِّم لحم البعير في التوراة (الأحبار٤: ١١)، ولكن الإسلام أجاز أكل لحمه. ولو قالوا إنه لم يحرم من أجل العرب، قلت إن التوراة حرمت الأرنب (المرجع نفسه: ٦)، ولكن الإسلام أباح أكله. فإذا ادعوا أن البعير أُحل من أجل العرب فلماذا أُحل الأرنب؟

ثم لو كانت هذه الأوامر القرآنية تقليدا للتوراة للزم أن يورد القرآن كل الأوامر التوراتية، ولكنه ترك العديد منها؛ فمثلا: ورد في التوراة أن من يأكل الميتة فعقوبته أن يصبح نجسا وتبقى ثيابه نجسة إلى المساء (الأحبار١١: ٣٩-٤٠)، ولكن القرآن لم يذكر هذا الأمر الذي هو في الحقيقة لغو. فالقول بأن القرآن حرم أشياء تقليدا للتوراة خلاف للأمر الواقع.

ثم إن التوراة لم تذكر أي سبب أو حكمة للتحريم، ولكن القرآن بيّن سبب الحرمة، فقد جاء فيه: (قل لا أجد فيما أُوحِي إليّ محرما على طاعم يَطعمه إلا أن يكون مَيتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنّه رجس، أو فسقًا أُهِل لغير الله به. فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فإن ربك غفور رحيم) (الأنعام: ١٤٦). قوله تعالى (فإن ربك غفور رحيم) يعني أن هذا المضطر إذا أكل منه فإن الله تعالى سوف يحميه من التأثير السيئ لما أكل. ولقد بين الله هنا أن حرمة الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير ترجع إلى كونها ضارة.. لأن الرجس تعني النجس والعذاب.. فالمراد أن هذه الأشياء نجسة أو مؤذية للإنسان روحانيا وبدنيا.

ولقد تناول الله ذِكر الحلال والحرام في سورة المائدة (٤) وفي سورة النحل (١١٦) وذكَر هنالك كل هذه الأشياء نفسها، إلا أنه شرح الميتة في سورة المائدة وقال إن الموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبعُ أيضا تندرج تحت حكم الميتة.

وتناول ما أهلّ لغير الله به على حدة، لأنه.. وإن كان لا يضر ضررا ظاهريا.. يضر روحانيا، ويؤدي أكله بالإنسان إلى الإباحية واللادينية، فتنقطع صلته بالله. فالتوراة قد حرمت بعض الأشياء بدون ذكر الحكمة وراء تحريمها، ولكن القرآن حرمها مع ذكر حكمتها. فليس صحيحا أن القرآن الكريم نقل بعض مسائل الحل والحرمة من التوراة.

قوله تعالى (فمن اضطر غير باغ ولا عاد).. أول شرط للاستثناء هو أن يكون الآكل مضطرا. والاضطرار يعني أن يُكره الشخص على عمل شيء لا يحبه أو يضره. وهذا الإضرار على نوعين: الأول –التهديد الخارجي، والثاني –التحريض الداخلي.. مثل هيجان العواطف أو متطلبات الطبع (المفردات).

والشرط الثاني ألا يكون باغيا متمردا مخالفا للقانون.

والشرط الثالث ألا يكون متعودا على تجاوز الحدود. والبغي أن يكون مثلا في زيارة صديق مسيحي ويطلب طعاما، فيقدم له لحم الخنزير، فيشرع في تناوله بدون تردد. هذا هو البغي والعصيان. إنما يجوز أكل لحم الخنزير للمرء فقط عندما يكون في صراع بين الموت والحياة، ولا يجد شيئا للأكل إلا لحمه. فاستخدام لحم الخنزير عندئذ يعتبر أقل ضررا من عدم استخدامه.

ولكنه أضاف قوله (ولا عاد) لبيان أنه ليس مسموحا أبدا للمضطر أن يتناول هذا اللحم ملء البطن.. وإنما مسموح له أن يتناول منه ما يسد رمقه وتستمر به حياته. ولو أنه راعى هذه الحدود فلا إثم عليه. أما إذا فكر في نفسه: لقد أتيحت لي الفرصة لأكل لحم الخنزير لأول مرة فلأَشبعْ منه.. فهذا غير جائز. يجب أن يكون الاضطرار حقيقيا وليس وهميا.

وقوله تعالى (إن الله غفور رحيم) يثير سؤلا: ما دام تناول هذه الأشياء في الحالة الاضطرارية ليس إثما.. فلماذا قال (إن الله غفور رحيم) ؟ وإذا كان تناولها في هذا الحال إثما.. فما معنى قوله (فلا إثم عليه) ؟

يتبين من الآيات القرآنية الأخرى أن ما يرتكبه الإنسان من تقصيرات إنما يرتكبها وبالا على أعمال سيئة سابقة خفية عن أنظاره. ولما كان الله تعالى يذكر هنا أولئك الذين أبيح لهم تناول لحم الختزير وغيره في حالة اضطرارية.. لذلك قال (إن الله غفور رحيم).. تنبيها لهم إلى أن وقوعكم في هذه الحالة الاضطرارية دليل على أنكم لستم حائزين على مقام سام من التقوى، وإلا لأنقذكم الله من هذه الورطة، وهيأ لكم الرزق من الغيب بصورة أخرى. ولقد خلا في الأمة المحمدية إلى اليوم مئات الآلاف من أولياء الله.. ولا يمكن إثبات أن أحدا منها -وإن لم يكن من كبارهم- تعرض لجوع أو فاقة ألجأته لأكل الميتة أو لحم الختزير. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فليدرك هذا المضطر أنه لا بد قد ارتكب في حياته السابقة من الذنوب والتقصيرات ما كان وباله أن رأى هذا اليوم المشئوم الذي اضطُر فيه إلى أكل لحم الختزير.. رغم ادعائه الإيمان والانتساب إلى أمة محمد ﷺ. صحيح أنه من المباح له في هذه الحالة لُقيْمات من لحم الختزير أو الميتة حتى ينجو من الموت، ولكن ما دام قد وصل إلى هذه الحالة وبالا على بعض أعماله السيئة الخفية، لذلك عليه أن يراقب أعماله ويحاسب نفسه، ويُسيل دموع الندامة على تقصيراته، ويتوب إلى الله ويستغفره، ويستمر في الابتهال ليغفر له خطاياه ويستره في رداء مغفرته. ولو أنه فعل ذلك بصدق قلب فإن الله غفور رحيم.. وسوف يجده كذلك، وسوف يحفظه من الوقوع في هذه الحالة الاضطرارية.

هناك حادث وقع لأحد الصحابة، فقد أسره العدو في الحرب وأخذه إلى قيصر، فأراد قيصر قتله، ولكن الحاشية أشارت عليه بعدم قتله، لأن المسلمين أيضا لا يقتلون أسراهم، ولو علم عمر -رضي الله عنه- أن أحدا من أصحابه قُتل أسيرا لانتقم له انتقاما شديدا. فقال قيصر: أريد أن أعاقبه عقابا يكون عبرة للآخرين. فأشاروا عليه أن يطعموا الصحابي لحم ختزير. فجوَّعوه عدة أيام، ثم قدموا له لحم ختزير، فرفض تناوله بكل شدة. وبينما كانوا يُكرهونه على تناوله أصيب قيصر في رأسه بصداع شديد لم يستطيعوا علاجه منه. فقالت له الحاشية: ربما كان هذا الوجع بسبب إيذاء الأسير، فقرروا أن يكتبوا لخليفة المسلمين يسألونه الدعاء كي

يُشفى. ولما كان من غير اللائق بهم أن يضطهدوا مسلما أسيرا عندهم بينما كانوا يسألون الدعاء من الخليفة.. فاضطروا لتقديم الطعام المناسب له.

فأقوياء الإيمان لا يضعهم الله في موقف يضطرهم لتناول طعام حرام، وإنما يهيئ لهم الأسباب من عنده لكل خير وبركة.

والجواب الثاني عن سبب ورود قوله تعالى (إن الله غفور رحيم) أن الإنسان إذا تناول هذا الطعام لحالة اضطرارية قصوى فإن تأثيراته السامة التي بسببها حرَّمته الشريعة لا تزال تشكّل خطرا عليه، ولا يتم تلافيها إلا إذا تمسك الإنسان برداء الإله الغفور الرحيم، سائلا إياه: يا رب، لقد استفدت من رخصتك، وتناولت الطعام السام إنقاذا لنفسي، فارحمني بفضلك واحفظ روحي وجسمي من تأثيراته المهلكة. من أجل هذه الحِكم اختتم الله الآية بقوله (إن الله غفور رحيم).. لكيلا يطمئن الإنسان، بل يحاول تلافي الأمر ويطلب من الله الحماية من هذه التأثيرات.

وربما نظرا لهذه الرخصة من الشريعة قال سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود إنه لو تعسر الوضع على سيدة حامل، واضطرت لمساعدة من طبيب رجل، ولكنها رفضت وماتت في هذا الحال.. فموتها يعتبر انتحارا. كذلك لو أن الإنسان أشرف على الموت من شدة الجوع فأكل شيئا من لحم الخنزير أو الميتة فلا إثم عليه.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٥)

التفسير: يقول الله تعالى إن الذين يخفون ما أنزلنا من تعليم عظيم في هذا الكتاب لهداية الناس ويكسبون بذلك منافع مادية فليدركوا أنهم إنما يُفرغون في بطونهم النار. بإيراد هذه الآية بعد بيان مسائل الحل والحرمة فورا.. أشار الله إلى أنه كما كان حراما وإثما أكلُ الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح من الحيوانات لغير الله.. كذلك تذكروا أن إخفاء ما أمر الله به ورسوله واعتبار الأموال والجاه والمناصب

الدنيوية هدفا للحياة، والاعراض عن الله أيضا ليس بأقل شناعة وحرمة من أكل تلك المحرمات. فكما أنَّ أكل هذه حرام كذلك فإنّ تردّد الإنسان وخوفه من قول كلمة الحق مع وقوفه على مسائل الدين حرام، وإذا أدّى إظهار العقيدة وتبيان ما قاله الله ورسوله والعِمل به علنا إلى حرمانه من الوظيفة أو إلى كساد تجارته أو إلى قلة احترامه بين أصدقائه، فحرام عليه أن يخشى ذلك. إن الذين ينافقون رغم العلم، ويؤثرون المنافع الدنيوية على مصالح الدين.. فليتذكروا أنهم يُفرغون في بطونهم النار.

جاءت هنا كلمة (بطون) للتأكيد. وفي جملة (في بطونهم إلا النار) إشارة إلى أن الله سوف يخلق عذابا من النار في بطونهم.. أي أنهم يُعذبون بعذاب الباطن الذي هو أشد من عذاب الظاهر. وقد عبر عن هذا المعنى أحد الشعراء بقوله:

دخول النار للمهجور خيرٌ من الهَجر الذي هو يتَّقيه
لأن دخوله في النار أدنى عذابا من دخول النار فيه

لقد استخدم القرآن الكريم في هذه الآية نفس الأسلوب، و لم يقل إنهم يدخلون في النار، بل إن النار تدخل في بطونهم.. بمعنى أنهم بأنفسهم يعِدُّون جهنم باطنية، فاستخدم السبب هنا بدلا من المسبب.

وفي قوله تعالى (ولا يكلمهم الله يوم القيامة) نكتة عظيمة الشأن.. قد نسيها للأسف المسلمون في هذا الزمن. إن كلام الله مع الكفار يوم القيامة ثابت، وقد ورد في القرآن الكريم في موضع آخر(ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) (القصص: ٦٦)، فإذن إعراض الله عنهم وعدم حديثه معهم دليل على أنه ساخط وغاضب عليهم أشد الغضب لدرجة أنه لن يحدثهم حتى للزجر. وهذا يعني أن عدم كلام الله مع أحد علامةٌ لسخطه عليه. ولكن مسلمي اليوم يقولون إن عدم كلام الله مع عباده نعمة عظيمة —والعياذ بالله!-نالتها الأمة المحمدية.. بفيض المصطفى ﷺ وبركته!! الحق أنه كان يجب أن يفتح الله باب هذه النعمة عليهم إلى أوسع نطاق كدليل وعلامة على كونهم خير الأمم، فيتشرفوا بكلام الله وحديثه أكثر من الأمم السابقة، ولكنهم تمسكوا بأن هذه النقمة نعمة، وهذا البعد إنعام!!

وقد تعني هذه الآية أن الله تعالى لا يكلمهم كلام محبة، وهذا أسلوب عام في اللغات، وفي لغتنا أيضا يقال (لن أحدثك).. والمراد (لن أحدثك كما يتحدث الأصدقاء). فالمعنى أن الله لن يحدثهم حديث مودة، وإنما يكلمهم كما يتكلم القاضي مع المذنب عند إصدار الحكم بعقوبته. وأيا كان المعنى.. فعدم كلام الله دليل على سخطه، ولكن المسلمين –بكل فخر –يقولون إن الله أنعم على أمة محمد المصطفى ﷺ بترك الكلام معهم –والعياذ بالله.. وقطع سلسلة الوحي والإلهام عنهم.

قوله تعالى (ولا يزكّيهم). لما كان الغرض من إلقاء الكفار في جهنم هو تزكيتهم وتطهيرهم بحسب تعليم الإسلام.. فإن قوله (ولا يزكيهم) لا يعني أنه لا يطهرهم.. وإنما يعني أن لن يبرئ ساحتهم ولن يعتبرهم أطهارا.

الترتيب والربط:

الخطاب في هذه الآيات موجه إلى المسلمين، وكذلك إلى اليهود. فقوله تعالى (إنما حرم عليكم الميتة) دحض لاعتراض اليهود: لماذا يُحَرِّم هذا النبي ما لم يحرَّم في شريعة موسى إذا كان حقا مصداقا لهذه الأنباء التوراتية؟ فيرد الله أن اعتراضهم هذا ناشئ عن قلة تدبرهم وجهلهم بلا شك. إن الأوامر والأحكام المختصة بوقت معين لا يمكن أن تدوم، ومثاله كمثال تحريم البعير على اليهود.. ولكنه كان حلالا بالنسبة لإبراهيم. وكما أن بعض الأشياء كانت حلالا قبل موسى، وكان العديد من الأنبياء يتناولونها، ولكنها حرمت في زمنه.. كذلك بعد الشريعة الموسوية أيضا يملك الله كل الخيار بأن يُحل ما كان يُعتبر من قبل حراما.

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٦)

التفسير: تبين الآية أن الله تعالى لم يمارس أيّ جبْر على الإنسان، وإنما خيّره تماما بين الخير والشر. ثم إنه ببعث الأنبياء قد أخبر الإنسان ما هي الهداية وما الضلالة،

فالإنسان مخيّر أن يستخدم عقله ويستفيد من كلام الله ويسلك طريق الهدى، أو يتبع الشيطان ويختار سبيل الضلال. وإذا فضل الإنسان طريق الضلالة فلا بد أن يتحمل النتائج الطبيعية لذلك في صورة عذاب الله تعالى.

وهنا يبدي الله عَجَبَه على جسارتهم وعماهم فيقول: (فما أصْبَرَهم على النار). ما داموا قد فضلوا العذاب على المغفرة فما أغرَبَ جرأتهم على تحمل العذاب!

وهنا ينشأ سؤال: هل الله أيضا يبدي العجب؟ والجواب أن العجب في بعض الأحيان ليس بمعناه العام وإنما يستهدف إبراز شدة غبائهم.. كأنه قال: هل هذا الشيء يليق بأن يصبروا عليه؟ فلا يعني قوله هذا أنهم صابرون فعلا على النار، وأن الله يُثني على صبرهم أو يتعجب منه.. وإنما هذا تعريض بهم، وبيان أنهم أغبياء وأنهم سوف يصبرون على العذاب كثيرا؛ وليس أنهم في الحقيقة يصبرون عليه.. لأن أتفه قدر من العذاب يفوق تحمل الإنسان. هذا إذا كانت "ما" تعجّبية.

أما إذا كانت "ما" استفهامية فالمعنى: ما الذي جعلهم يصبرون على النار؟

وإذا كانت "ما " نافية فالمعنى: لا وفَّقهم الله للصبر على النار، بل عاقَبهم وجعلهم يشعرون بحرقتها اللاذعة.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٧)

شرح الكلمات:

شِقاق –شاقّة: خالفه وعاداه. وحقيقته أن كلاً منها في شِقٍّ غير شق صاحبه (الأقرب).

التفسير: يقول الله إن سبب وقوع العذاب بهم أنه جل وعلا قد أحسن إليهم بإحسان عظيم.. إذ وهبهم شرعا يقوم كل حرف منه على الصدق والحق، ولكنهم لشدة عنادهم وعداوتهم رفضوه وأصبحوا كافرين برسالة الله.

وقوله تعالى (في شقاق بعيد) يعني أنهم في العداوة البالغة التي لا تزول بسرعة وتبقى لمدة طويلة.

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُتَّقُونَ (١٧٨)

شرح الكلمات:

البر- الصلة؛ والطاعة؛ والصدق (الأقرب). والبر التوسع في فعل الخير. بَرّ العبدُ ربه: توسع في طاعته. فالبر من الله ثواب، ومن العبد الطاعة (المفردات).

البأساء – الشدة؛ اسم للحرب؛ المشقة؛ الضرب (الأقرب).

الضرّاء –الزمانة أي القحط؛ الشدة؛ النقص في الأموال والأنفس؛ نقيض السراء والرخاء (الأقرب).

البأس-الفقر؛ العذاب؛ الشدة في الحرب؛ القوة. وفي القرآن الكريم (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد).. أي قوة شديدة (الأقرب).

التفسير: في هذه الآية ذكر الله الوجهة الإسلامية للبر والتقوى، وبيّن البر الحقيقي، إذا تدبرنا بعمق وجدنا اختلافا كبيرا بين الناس فيما يتعلق بالبر والتقوى. لقد اختلف تعريف البر باختلاف الشعوب والأزمان والبلاد. الفقراء لهم تعريفهم للبر، وللأثرياء تعريف آخر. أما من ناحية اختلاف البلاد.. فهم في الهند مثلا يعتبرون الحاج رجلا صالحا بارا، حتى إنهم يؤثرون الحاجّ على شخص مواظب على الصلاة والصوم وسائر الأحكام الشرعية الأخرى.. وإن كان هذا الحاجّ يقضي أوقاته أثناء رحلة الحج في الفضول ولغو الكلام، و لم يحدث أي تغير إيماني في نفسه بعد الحج؛ وإن لم يكن يبالي بالصوم والصلاة.

لقد كان سيدنا المهدي والمسيح الموعود يحكي أن امرأة عجوزا عمياء كانت جالسة قرب محطة للقطار، فانتزع أحدهم رداءها، فلما انتبهت نادت: أيها الأخ الحاج، لماذا سرقت ردائي؟ ليس عندي غيره، ولسوف أموت في هذا البرد القارص. فرجع الرجل وردّ لها رداءها وسألها: كيف عرفت أني حاج؟ قالت: لا يقوم بمثل هذه الأعمال إلا الحجاج! فهذه المرأة الكفيفة لم تكن تراه، ولكن عرفت أن هذه القسوة لا يقوم بها إلا الحجاج. ومع ذلك فإن الناس في بلادنا يعتبرون الحجاج أبرار صلحاء. ولكن في البلاد العربية لا يعتبرون الحج من أعمال البر الكبيرة.. بل يعتبرون الجود والسخاء هو البر الحقيقي. ولو مدحوا أحدا لقالوا إنه رجل صالح لأنه كريم جواد. ولو انتشر الإسلام في أوروبا فسوف يعتبرون الصوم برّا عظيما.. لأن هؤلاء يهتمون بالطعام ويأكلون بكثرة.. وعندما يضطرون للإمساك عن الطعام صائمين فسوف يعتبرون الصوم برا كبيرا يفضُل عندهم الحج والزكاة والصلاة وغيرها من الأحكام الشرعية.

كذلك في بلادنا يعتبرون من الصلاح الكبير مواظبة الإنسان على الصلاة. يقولون إنه بار صالح لأنه يواظب على الصلاة، ولكن لم يكن أداء الصلاة والمواظبة عليها وحدها معيارا عند الصحابة لمعرفة برِّ أحد.. لأنهم كانوا حائزين على درجة عالية من البر. كان اعتبار المحافظة على الصلاة وحدها برا كبيرا في نظر الصحابة كقول أحدهم أن فلانا شجاع لأنه ثابت على قدميه، أو أن فلانا حديد النظر لأنه تعرّف على أمه الجالسة بجنبه؛ أو أن فلانا قوي المعدة لأنه هضم حبة من الحمص!! فكما أن هذه المعايير مهزلة ومضحكة بالنسبة لقياس الشجاعة وحِدّة النظر وقوة المعدة.. كذلك كان من المضحك عند الصحابة أن يقاس صلاح أحد بمجرد أدائه للصلاة ومواظبته عليها، لأنهم كانوا يرون أن تقديم التضحيات الجسام والثبات في الاختبارات الشديدة في سبيل الدين هو البرّ الحقيقي، ومن يتحلّى بهذه الصفات أكثر كان بارا. فتعريف البرّ يختلف زمنا وشعبا وبلدا. وفي هذه الآية بين الله أن توجّه أحد إلى الشرق أو إلى الغرب ليس ببِر. فلو توجه المرء إلى القبلة في الصلاة، ولكن لم تكن صلاته مفعمة برحيق الإخلاص والتضرع والخشوع كما تتطلب

الصلاة الحقيقية.. فلن ينتفع شيئا بالصلاة والتوجه إلى القبلة، لأن التوجه إلى جهة معينة ليس هو البر.. وإنما البر اسم لتلك الكيفية التي تتولد في القلب. وما الحركات الظاهرية إلا علامة لتلك الكيفية القلبية. وإذا لم يكن في هذه الحركات الظاهرية ذلك الشيء الذي له علاقة بالقلب فلا معنى لهذه الحركات. فالتوجه إلى القبلة أو أداء الصلاة أو الصوم أو الحج إذا خلا من الكيفية القلبية فإنه عبث لا جدوى منه.. لأنه بدون تلك الكيفية يكون بمثابة سلاح عتيق غير مجد لا يعمل. ومثال ذلك أن يكون لدى شخص سيف، ولكنه قديم لا يقطع، أو أكله الصدأ فلا ينفع. فكما أن الأسلحة تقدَّر قيمتها بحدها وصقلها وصفائها، كذلك الأعمال إنما تعرف قيمتها في نظر الله إذا كان صاحبها يبغي بها وجه الله ورضوانه.

فقد بيّن الله هنا علامات البر وأخبر ما هو البر الحقيقي عنده، فقال إن التوجه إلى الشرق أو الغرب ليس ببر، بل لا بد أن يصحبه إخلاص وحرقة وخشوع. إذا لم يتعود الإنسان بهذا العمل على الابتهال والدعاء إلى الله وذِكره، وإذا لم يخلق هذا فيه شفقة على خلقه جل وعلا، وإذا لم يزِده حبّا ورحمة باليتامى والفقراء والمساكين.. فلا حقيقة ولا معنى لهذا العمل.

لقد تناول الله ذكر التوجه إلى الشرق والغرب هنا لأنه قبل هذه الآية بآيات عديدة طمأن المسلمين بقوله: (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثَمّ وجه الله) (١١٦).. لا شك أنكم مستضعفون في الأرض الآن.. ولكن تذكّروا أن الشرق والغرب كله لله. سوف ننتزع الحكم من أيدي هؤلاء في يوم من الأيام ونوليكم حكم الشرق والغرب، وأينما خرجتم بجنودكم فسوف ترون تجليات من الله تعالى، وسوف تحققون نصرا بعد نصر في كل خطوة، وسوف يظهر الله آيات بعد آيات. وهكذا نبّأ أن المسلمين سوف يحققون انتصارات دنيوية فيكونون بحسبها حكاما للشرق والغرب. وعندما تتم الانتصارات المادية لقوم يكون هناك خطر شديد أن يميلوا إلى الدنيا ويهملوا المسألة المركزية في انتصاراتهم.. ألا وهي العلاقة الخاصة مع الله تعالى. لذلك نصح الله هنا المسلمين لإصلاح أنفسهم عقيدة وعملا، وقال: ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب.. أي ليس من البر الكامل أن تستولوا

على المشرق والمغرب وتحققوا انتصارات متتالية. صحيح أن هذا أيضا من نعم الله الكبيرة، ولكن البر الكامل لا يعني الفتوحات الدنيوية فقط، وإنما البر الكامل يعني أن يؤمن الإنسان إيمانا صادقا بالله جل علاه واليوم الآخر والملائكة والقرآن الكريم وجميع الأنبياء، ويعني البر الكامل أن ينفق الإنسان على أقاربه واليتامى والمساكين والمسافرين والسائلين، وفي تحرير رقاب العبيد. ويعني البر الكامل أن يقيم الإنسان الصلوات ويؤدي الزكاة ويفي بوعوده، ويتمسك بالصبر في الضائقات المالية وحال المرض ويثبت في وقت الحرب. حقِّقوا الفتوحات المادية والانتصارات الدنيوية أيضا.. ولكن لا تنسوا أن هدفكم ليس هو الاستيلاء على البلاد، بل أن تنشئوا علاقة كاملة مع الله تعالى، وأن تقوموا بخدمة خلْقِه خدمة صادقة. يجب أن تكون هذه الغاية نُصب أعينكم دائما.

وفي قوله تعالى (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر..) إشكال عن خبر "لكن"، لأن (من آمن بالله واليوم الآخر) لا يطابقه في الظاهر، ولا بد من تقدير محذوف هنا. وقد قال النحويون بتقديرات ثلاثة:

أولها: ولكن البر برُّ من آمن. أي أن المحذوف هو كلمة برّ قبل (مَن آمَن). وفي اللغة العربية عموما يُحذف المضاف كما في قوله تعالى (واسأل القرية) (يوسف: ٨٣) والتقدير: واسأل أهل القرية (كتاب سيبويه مج١ص١٠٨)

وثانيها: اعتبار (البر) مصدرا بمعنى اسم فاعل والتقدير هو: ولكن البار مَن آمن.

وثالثها: اعتبار حذف كلمة (ذو) قبل البر، والتقدير: ولكن ذا البر من آمن.

ويتبين من الجزء التالي من الآية أن هذه التقديرات الثلاثة صحيحة ومطابقة للمشيئة الإلهية.. لأن الآية بعد ذلك تقول (والموفون بعهدهم إذا عاهدوا، والصابرين في البأساء والضراء).. والموفون مرفوع والصابرين منصوب. فإذا أخذنا بالتقديرين الثاني والثالث.. أي ولكن البار من آمن ".. أو "ولكن ذا البر من آمن".. فلا يصح أن يُرفع (الموفون) مع أنه مرفوع، إذا أخذنا بالتقدير الأول.. أي: ولكن البر برّ من آمن. فلا يصح نصب الصابرين مع أنه منصوب. ووجود هاتين الكلمتين: الموفون،

والصابرين، بهذه الصورة المختلفة بيّن أن التقديرات الثلاثة صحيحة في الحقيقة، وأن المعاني الثلاثة مطابقة لمشيئة الله.

على أية حال.. يقول الله إن أول شرط للبر والذي لا يمكن أن يتغير أو يتبدل.. هو أن يكون المرء مؤمنا بالله تعالى. لا يمكن أن يأتي على الإنسان زمن يقول فيه: لا حاجة لي للإيمان بالله. والشرط الثاني أن يؤمن باليوم الآخر، وهذا الحكم أيضا غير قابل للتغير. والشرط الثالث هو الإيمان بالملائكة، وهذه الحقيقة أيضا قائمة منذ الأزل، وسوف تستمر إلى الأبد. والشرط الرابع هو الإيمان بالكتاب.. أي الوحي الإلهي. ولقد استخدم الله كلمة الكتاب بصيغة المفرد، ولكن ينبغي ألا يساء الفهم فيُظن أن الإيمان بكتاب واحد يكفي، لأن المراد من الكتاب هنا كل الوحي الإلهي، وسواء نزل في الماضي أو سينزل في المستقبل. فالإيمان بكل وحي الله ضروري وشرط لازم. والشرط الخامس هو الإيمان بالأنبياء. وهذه الحسنات من الأهمية بمكان، ولا يمكن بدونها أن يحصل الإنسان على أدنى مقام من الروحانية.

ثم ذكر الأعمال، وذكر في البداية إنفاق المال، و لم يقل فقط (آتى المال) بل أضاف (على حبه) لأن الإنسان يمكن أن ينفق المال على ما لا يجوز الإنفاق عليه، وهذا ليس برا وإنما هو معصية. والضمير في (حبّه) يمكن أن يرجع إلى المال أو إلى إيتاء المال أو إلى من ينفق عليه المال أو إلى الله أيضا.

وفي الصورة الأولى يكون المعنى: أنه ينفق المال في سبيل الله رغم حبه للمال.

وفي الصورة الثانية يكون المعنى أنه ينفق المال حبّا في إيتاء المال، أو أنه لا ينفق هذا المال باعتباره غُرما ولكنه راغب ومتشوق إلى فعل الخير والصدقة. ويتلذذ بهذه الحسنة.

وفي الصورة الثالثة يكون المعنى أنه لا ينفق المال على هؤلاء باعتبارهم أذلة صغارا مهانين.. كلا، وإنما باعتبارهم أخوة له يحبهم. كما لا ينفق المال لإفسادهم وإنما ينفق عليهم ليستعينوا به في عمل حسن نافع فيرتقوا ويزدهروا.

وفي الصورة الرابعة يكون المعنى أنه ينفق على هؤلاء ابتغاء مرضاة الله ومحبته وليس لمصلحة دنيوية أو سمعة بين الناس.

وإذا أُنفق المال بهذه الشروط الأربعة لم يكن إنفاقا منكرا أبدا. ويمكن اعتبار هذه مدارج أربعة للإنفاق. أدناها هي الدرجة الأولى، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الدرجة الرابعة وهي أعلاها. فالدرجة الأولى أن الإنسان رغم حب المال ينفقه في سبيل الله. والدرجة الثانية أن يكون قد تعوّد على إنفاق المال وعمل الخير ويتلذذ بذلك حتى أنه يبحث عن فرص الإنفاق في الخيرات برغبة قلبية وتوق شديد. والدرجة الثالثة أن يعتبر من ينفق عليه أخا فقيرا حبيبا إليه لينفق أخوه هذا المال في مشروعات مفيدة ويزدهر. ولكن أعلى هذه الدرجات هي أن يكون هذا الإنفاق خالصا لابتغاء محبة الله ورضوانه، ويحسن إليهم وينفق عليهم لأنه قد تعود على الإنفاق، أو لأنه يحب إخوانه الفقراء، بل يحسن إليهم حُبا لله وابتغاء لمرضاته.

ولقد ركز الصوفية على هذا الأمر الأخير حتى قال بعضهم: لسنا بحاجة إلى جنة، ولكننا بحاجة إلى الله تعالى. فلو نلنا الله ورضوانه بدخولنا في النار فنحن مستعدون لذلك. وهذا مقامٌ سامٍ جدا لأنه في هذا المقام لا يبقى أمام أنظار الإنسان إلا الله، ويستولي عليه جماله سبحانه وتعالى لدرجة أنه لا يبصر إلاّ إياه.

أما السؤال: علامَ ينفق حبّا لله؟ فقد تناوله الله بالشرح والتفصيل فقال:

أولاً: ينفق على ذوي القربى، لأن لهم حقا كبيرا على الإنسان.. كالآباء والأمهات، فهم في تربية الأولاد ورعايتهم يقدمون تضحيات لا نجد لها نظيرا في مجال آخر. كذلك الأقارب الآخرون فهم أيضا يستحقون المساندة إذا كانوا من ذوي الحاجة.

ثانيا: وينفق على اليتامى ويؤدي حقوقهم، لأنه ليس هناك من يرعاهم ويتفقد أحوالهم

وثالثا: ذكر المساكين، وهم الذين ليس عندهم مال لسد حاجاتهم، ولا يمدون أيديهم للسؤال أمام الآخرين.. كأنهم مصداق قول الله (لا يسألون الناس إلحافا) (البقرة: ٢٧٤). إنهم رغم فقرهم يحافظون على سمو أخلاقهم، ولا يستجدون الآخرين حمايةً لماء وجههم.

رابعا: ذكر المسافرين، و لم يشترط هنا فقرهم، مما يعني أنه كما يجب مساعدة المسافرين الفقراء كذلك إذا تتطلب الأمر فيجب ألا يتردد الإنسان في إعانة مسافر غير فقير، فقد يكون ذا مال ولكنه فقد ماله في الطريق. وفي هذه الحالة يأخذ المعونة كحقّ له، أو يسدّ حاجته بترك رهن عند الآخرين. كذلك من واجب الحكومة تقديم كل التسهيلات لحل مشاكل المسافرين سواء كانوا من رعاياها أو من الأجانب أو من السواح.

وخامسا: ذكر السائل. ويمكن أن يتساءل أحد: إذا كان هذا السائل فقيرا مفلسا فلماذا ذكره بعد ابن السبيل؟ فلنعرف أن الإسلام لا يحبذ السؤال، وقال رسول الله ﷺ إن من لديه طعاما يكفيه لوجبة واحدة ومع ذلك يسأل فإنما يستكثر من النار (أبو داود، كتاب الزكاة). وكذلك رأى سيدنا عمر رضي الله عنه رجلا يسأل الناس مع أن جرابه كان ممتلئا بالدقيق، فغضب عمر وأخذ الدقيق ونبذه أمام البعير (سيرة عمر لابن الجوزي، باب٦٠، ص١٧٠). كان عمر يريد بذلك ألا يكون عبئا على الآخرين، بل يعمل بيده ويحمي نفسه من خزي الأكل بالسؤال.. فالإسلام لا يحبذ الأكل بالسؤال، بل يريد أن يتحلى المسلم بالأخلاق العالية، وبدلا من أن يتسول يجب أن يبحث هو عن ذوي الحاجة ويسد حاجاتهم فلا يضطروا للسؤال.

وسادسا: ذكر (وفي الرقاب) أي مَن هُم في الأسر. وهناك محذوف تقديره: وفي فك الرقاب. لقد أخَّر هؤلاء لأنهم يكونون في معظم الأحيان من أهل الأديان الأخرى.

والقاعدة أن حق القريب أولى من حق البعيد. ابن السبيل يُعتبر ضيفا سواء كان مسلما أو كافرًا، ولذلك ينبغي أن يُعطي، أما الأسرى فلا بد أن يكونوا من غير المسلمين الذين جاءوا لحرب المسلمين لذلك ذكرهم في آخر القائمة. ومع ذلك ما أعظم هذا المعروف من قِبل الإسلام.. إذ يأمر الله المسلمين أن ينفقوا المال لفكّ رقاب من جاءوا لقتالهم.

ويندرج مع (في الرقاب) أيضا المدين والكفيل الذي أدّى الكفالة لأحد.

كان سيدنا الخليفة الأول لسيدنا المهدي يقول: إنني قد تصدقت بكل أنواع الصدقات ولكن لم تتح لي فرصة تحرير العبيد. وعندما ذهبتُ للحج قال لي الخليفة الأول: لو وجدتَ هناك عبدًا يُباع بمائة أو مائتي روبية فاشترِه وحرِّره باسمي؛ ولكننا لم نعثر على أحد هناك. إلا أن الله وفقه لتحرير العبيد أيضا، فيروي مرزا محمد أشرف-محاسب هيئة صدر أنجمان أحمدية أن الخليفة الأول عثر فيما بعد على اثنين من العبيد فحررهما.

قوله تعالى (وأقام الصلاة وآتى الزكاة) الصلاة والزكاة لهما معانٍ واسعة في اللغة، ولكنهما اصطلاح خاص في الشريعة الإسلامية، وقد وردتا هنا بالمعنى الشرعي. إحداهما تقوم بإصلاح العلاقات بين الإنسان وربه، والثانية تقوم بتحسين العلاقات بين الإنسان وإخوته من جنسه. وكأن الله بذكرهما نبّه على أن إنفاق المال وحده لا يُكسبكم رضوان الله، بل لا بد لكم من إقامة الصلاة وأداء الزكاة.. وكأن حقوق الله وحقوق العباد ما لم تؤدَّ تحت نظام أو بصورة منظمة فلا ينال الإنسان مقاما رفيعا في البر.

وقوله تعالى (والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس).. أي من علامات الحائزين على مقام عالٍ في البر والصلاح والتقوى أنهم يراعون عهودهم، ويصبرون على ما يصيبهم من الناس من أذىً وظلم. كأنهم من ناحية يسعون جاهدين للعمل على تأسيس المدنية الإسلامية، فلا يخلفون العهد ولا يخدعون أبدا؛ ومن ناحية ثانية إذا تطلبت المصالح الدينية والقومية والبلدية تحمّل المشاق والشدائد فإنهم يتحملونها بهمة وثبات، ويقدمون أسوة حسنة للاستقامة والصبر.

ليس المراد بالعهد هنا ما يُبْرم بين الناس من عهود شفوية، وإنما تتضمن كلمة العهد كل المسائل الهامة المتعلقة بالمدنية والاجتماع. ففي المجتمعات المتحضرة يُتوقع من كل شخص ألا يتجاوز دائرة حقوقه فيسلب حقوق الآخرين، وهكذا يتم الحفاظ على الحقوق. إذا عملوا بهذا المبدأ يُعدّون متحضرين، وإذا خالفوه يُعدون مثيرين للفتن والفساد. ولما كان الإسلام يريد خلق جو من السلم والأمان والمحبة.. ذكر

من علامة المؤمنين الكمَّل أنهم يوفون عهودهم بدقة وحرص، وكذلك وصفهم: (الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس) أي أنهم يبدون صبرا وجَلَدا وقت الفقر والضيق، وكذلك عند حلول المصاعب والشدائد البدنية. فالبأساء هنا تشير إلى المشاكل المالية، والضراء إلى الأمراض والمشاكل البدنية، والبأس إلى شدة الحرب. وكأنه تناول ذكر الابتلاءات من الأدنى إلى الأعلى، وبيّن أنهم لا يخلعون رداء الصبر في حال من الأحوال.

والنزاعات والحروب المذكورة هنا على نوعين: الأول: ما يكون بين الإخوان، والثاني: ما يكون بين المسلمين والأعداء. فإذا كان النزاع بينهم يصبحون الصابرين في البأساء والضراء، ويستعدون للتنازل عن حقوقهم لإخوانهم، ورغم كونهم صادقين فإنهم يتواضعون ويتذللون كأنهم كاذبون. أما إذا كان الصدام بينهم وبين أعداء الإسلام فلا يفرّون من ساحة القتال وإنما يواجهونهم بشجاعة، ويهريقون آخر قطرة من دمائهم توطيدا للأمن والسلام.

وقوله تعالى (أولئك الذين صدقوا).. أي أنهم هم الذين قدموا أسوة من الصدق والوفاء، (وأولئك هم المتقون).. أي هم الذين سوف ينجون من المصاعب والآلام. لقد ذكر هذه الميزة لهم خاصة، لأن أشد ما يؤذي الإنسان أن يرى حقوقه تُسلب أمام عينيه. إنه يستعد لأن يعامل غيره معاملة حسنة كمعروف منه إليه، أما إذا آذاه أحد فإنه يعتبره إهانة له. وما دام هؤلاء قد قدموا تضحية غير عادية إذ تحملوا الأذى والاضطهاد من الآخرين فقال الله تعالى: إنني أخصهم بالذكر، فهم الصلحاء الصادقون في إيمانهم.. قد أثبتوا صدقهم في الإيمان عمليا. وهؤلاء هم الناجون من المصاعب. لأن المصاعب إذا كانت سماوية فعلاجها الإيمان بالله وعبادته، وإذا كانت اجتماعية فعلاجها مراعاة قوانين الحضارة. فهؤلاء يعملون بأوامر الله، وأيضا يبتعدون عن المفاسد المدنية، فلا يمكن أن يذلوا ويهلكوا، وإنما يذل ويهلك فقط أولئك الذين يهجرون الله تعالى ولا يطيعونه، أو يلقون بأيديهم إلى التهلكة بالإغماض والتساهل عن القوانين المدينة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٩)

شرح الكلمات:

القصاص–هو أن يُفعل بالمرء مثل ما فعله من قتْل أو قطْع أو ضـرْب أو جـرح (اللسان). القصاص القتل بالقتل والجرح بالجرح (تاج العروس).

تخفيف –يعني التخفيف هنا العفو.

التفسير: يظن البعض جهلا منهم أن القرآن لم يُقدِّم أي تعليم أساسي في صـدد القتل، بل أعاد كل ما قيل لليهود في التوراة عن القتل.. مثلا كقولـه تعـالى (أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص) (المائدة: ٤٦).

ولكنه ظن ناتج عن قلة التدبر. إنني أرى أنه ما من مسألة أو قضية في حياة الناس. دينية أو سياسية أو مدنية أو عائلية.. إلا وتناولها الإسـلام بتوضـيح وصـراحة. صحيح أنه يذكر في بعض المواضع ما ورد من تعليم في الأديان السابقة، ولكنه أولا يلقي بنفسه الضوء على تلك القضية، ويقدِّم تعليما كاملا جامعا للناس بشأنها، ثم إتماما للحجة على أهل الأديان الأخرى وإخجالا لهم.. يقدم ما ورد في كتبهم من تعاليم بصددها، ذلك ليوقظ الإحساس في قلوبهم.. كيف أنهم اتخذوا تعاليم دينهم ظهريا رغم انتسابهم إليه.

وهذا هو نفس الحال هنا. فتعليم القصاص الذي يقدمه القرآن هنـا لـبني نـوع الإنسان لم يأت به تقليدا لما في التوراة، وإنما هو حلقة من سلسلة الأحكام التي بدأ ذكرها في الركوع الحادي والعشرين (الآية١٦٩)، فقد قال الله في الآيات السابقة إن من علامات المؤمنين الكمّل في الإيمان أنهم الصابرون في البأساء والضراء وحين البأس.. أي أنهم يصبرون في الضائقات من الفقر والمجاعة، كمـا يتجلـدون إزاء الشدائد البدنية والأمراض، ولا يرتعبون من لقاء العدو وإن قُتلـوا في الحـروب.

وينشأ سؤال طبعي: إلام تستمر سلسلة الشدائد هذه؟ حتّامَ يضربنا الناس ونصبر ونسكت ولا نتحرك؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف نعيش؟ فقال الله: أما أنتم فواجبكم الصبر، ولكن هناك آخرون في يدهم مقاليد الحكم والنظام، وهم مسئولون عن الأمن والأمان، ومن واجبهم أن ينتقموا لكم من مظالم الناس وأن يعاقبوهم العقاب الواجب. فقال (كتب عليكم القصاص في القتلى). من واجب الحكام أن يقتصوا لكم وليس لهم أن يعفوا عن هذه الجرائم والمظالم. مع العلم أن الخطاب في قوله تعالى (والصابرين في البأساء) كان موجَّها إلى عامة الناس، أما في قوله تعالى (كتب عليكم) فهو إلى الحكام، وبقوله تعالى (القصاص في القتلى) صرح بأن الجروح لا تندرج تحته.

الحقيقة أن هذه هي الآية التي تذكر التعليم الإسلامي في صدد عقوبة القتل، وتبين أن عقوبة القتل هي القتل. وهذا حكم عام شامل لجميع القتلى بغض النظر عن هوية المقتول أو القاتل أو قبيلتهما.. بدليل قوله تعالى (في القتلى). ولا نجد أي ذكر لعقوبة مادية سواه في أيَّة آيةٍ أخرى من القرآن الكريم على القتل المتعمد. إذنْ فهذه الآية هي الأساس للفقه الإسلامي فيما يتعلق بالقتل. والله تعالى لم يميز بين المسلم وغير المسلم هنا، ولم يذكر آلة أو سلاحا للقتل.. وإنما قرر أن عقوبة القتل هي القتل. بل ثابت من الأحاديث أنه في بعض الحالات قُتل أكثر من شخص في قضية قتيل واحد. فقد ورد في التاريخ أن مجموعة من الناس قتلوا شخصا في صنعاء، فأمر سيدنا عمر بقتل مجموعة القَتَلة كلها البالغة سبعة أفراد، وقال: لو أن كل البلدة اشتركت في هذا القتل لأمرت بقتلهم (الموطأ لمالك، الديّات).

وكذلك جاء في رواية لعبد الله بن مسعود: (قال رسول الله ﷺ: لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارقِ للجماعة) (مسلم، القسامة). وهناك رواية أخرى توضح الرواية السابقة وتقول: (رجل يخرج من الإسلام يحارب الله ورسوله فيُقتل أو يُصلب أو يُنفى من الأرض) (النسائي، تحريم الدم).. أي المراد من التارك لدينه المفارق للجماعة الذي يترك الإسلام ويحارب المسلمين.

تبين هذه الرواية أن لا تمييز بين رجل وامرأة، فكل من يَقتل يُقتل.. وأن النفس بالنفس. وفي رواية لابن عمر قال رسول الله ﷺ: من قتل مُعاهدا لم يَرَحْ رائحة الجنة) (ابن ماجة، من قتل معاهدا).. أي لا يشم رائحة الجنة. وقد وردت نفس العقوبة في القرآن الكريم لمن يقتل مسلما. قال تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما) (النساء: ٩٤).

وقد أكد النبي بنفسه على ذلك فقد أُتي برجل من المسلمين قد قتل معاهدا من أهل الذمّة فأمر به فضُرب عنقه، وقال ﷺ: أنا أولى من وفّى بذمته (شرح معاني الآثار للطحاوي، الجنايات). كذلك هناك رواية عن علي رضي الله عنه أن مسلما قتَل ذميًّا فأمر سيدنا علي بقتله (الطبراني).

يقول البعض: ورد في حديث أنه لا يُقتل مسلم بكافر.. ولكن لو قرأنا الحديث بتمامه لزال التعارض. يقول الحديث (لا يُقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده) (ابن ماجة، كتاب الديات). فالفقرة الثانية توضح المعنى. لو كان المعنى كما يظنون لكانت الفقرة الثانية (ولا ذو عهد بكافر)، ولا يقبل أحد بهذا. فالمراد من كافر هنا الكافر المحارب. ولذلك قال إن الذمي الكافر أيضا لا يقتل بكافر محارب.

وعندما ننظر إلى عمل الصحابة نجد أن الصحابة أيضا كانوا يقتلون القاتل المسلم بقتيل غير مسلم. فقد جاءت رواية القماذبان بن الهرمزان يذكر حادث قتل أبيه الهرمزان، الذي كان من كبار الفرس والمجوس، وكان مظنةَ الاشتراك في قتل سيدنا عمر رضي الله عنه. فثار عبيد الله بن عمر على الرجل بناء على هذه الشُبهة فقتله. يقول القماذبان: كانت العجم في المدينة يَسْتَرْوِح بعضهم إلى بعض [يتزاورون] فمر فيروز بأبي ومعه خنجر له رأسان، فتناوله منه وقال: ماذا تصنع بهذا في هذه البلاد ذات الأمن والسلام؟ قال: أُبسُّ به.. [أي استخدمه لحث الإبل]، فرآه رجل. فلما أصيب عمر، قال رأيت هذا مع الهرمزان دفعه إلى فيروز. فأقبل عبيد الله فقتله. فلما وُلِّي عثمان دعاني فأمكنني منه. ثم قال: يا بني، هذا قاتل أبيك وأنت أولى به منا، فاذهب فاقتله. فخرجت به وما في الأرض أحد إلا معي، إلا أنهم يطلبون إلي

فيه. فقلت لهم: ألي قتلُه؟ قالوا: نعم، وسبوا عبيد الله. فقلت: أفلكم أن تمنعــوه؟ قالوا: لا، وسبّوه. فترتكه لله ولهم. فاحتملوني. فوالله، ما بلغت المــترل إلا علــى رؤوس الرجال وأكفِّهم(تاريخ الأمم والملوك للطبري، أحداث السنة ٢٤).

فهذه الحادثة تؤكد أن الصحابة كانوا يقتلون القاتل المسلم بغير المسلم، كما تؤكد أنهم كانوا لا يفرقون بين سلاح وآخر، وأن الحكومة هي التي تقبض على القاتــل وتحاكمه وتعاقبه.. فقد رأينا في الرواية أن الخليفة سيدنا عثمان رضي الله عنه –هو الذي أمر بالقبض على عبيد الله وسلمه لابن الهرمزان، وليس أن ورثة الهرمزان هم الذين أخذوه وحاكموه.

هنا سؤال ينبغي الجواب عليه: هل يسلَّم القاتل إلى ورثة القتيل لينــزلوا به العقاب كما فعل سيدنا عثمان. أم أن الحكومة هي التي تتولى عقابه؟

هذه المسألة نسبية وهامشية، وتركَها الإسلام مفتوحة ليعمل الناس بحسب مقتضى عصرهم، ويختاروا أي الطريقين بحسب حضارتهم وأحوالهم. ولا شــك أن كــل طريقة تفيد في أحوال خاصة.

ثم قال (الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) ولا يعني ذلك أنه إذا قُتل حر يُقتل مكانه حر، وإن كان القاتل من العبيد؛ أو أن يُقتل عبد بدل قتيل عبدٍ وإن كــان قاتله من الأحرار؛ أو تُقتل امرأة مكان امرأة وإن كان قاتلها أحد الرجــال.. لأن التعليم الأساسي في هذا الصدد سبق أن ذكر في قوله تعالى (كتب عليكم القصاص في القتلى). وقوله تعالى (الحر بالحر) في الحقيقة جملة مستأنفة، والجملة المــستأنفة تأتي للرد على سؤال مقدّر في الجملة السابقة وبدون عطف (شرح مختصر المعــاني، شرح الكلمات: ٣ص٥٤). وجاءت الجملة المستأنفة هنا للرد على سؤال مقدر في الجملة السابقة، وللقضاء على بعض العادات بين العرب. والسؤال المقدر هنا هو: هل الأمر بالقصاص في القتل يُلغي كل العادات التي يتبعها العرب في هذا الصدد؟ فأجاب الله: نعم، وقال: (الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) ولقد اكتفى الله بثلاثة منها ولم يذكرها كلها.. وكأنه قال الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى وهلم جرا.

الواقع أن العرب في الجاهلية كانوا يعتبرون بعض الأسر رفيعة المقام وبعضها منحطة رذيلة، ويعتبرون بعض الأفراد أحرارا وبعضهم عبيدا، وإذا ارتكب أحد جريمة نظروا: هل القاتل حر أم عبد؟ فإذا كان عبدا فهل سيده من كبار القوم أم صغارهم؟ هل هو رجل أم امرأة؟ وهل هو أو هي من أسرة كبيرة أم صغيرة، ثرية أم فقيرة؟ كانوا يراعون كل هذه الأمور عند إنزال العقوبة، وكانوا لا يتزلون العقوبة بالأحرار من الرجال أو النساء بمثل ما يتزلونها بالعبيد. وكانوا لا يعاقبون أفراد الأسر الرفيعة بما يعاقبون به أفراد الأسر الدنية. فجاء الإسلام وأعلن: (كتب عليكم القصاص في القتلى)، وكان الأمر شاملا وعاما. فإذا قُتل إنسان كان لا بد من قتل قاتله، سواء كان المقتول رجلا أو امرأة، وسواء كان القاتل رجلا أو امرأة، وسواء كان هذا أو ذاك حرا أو عبدا، وسواء كان القاتل فردا أو جماعة، وسواء كان القتيل مسلما أو معاهدا.

ونشأ هناك سؤال طبعي: هل ينفَّذ القصاص بحسب عادات العرب في الجاهلية أم لا؟ فكان الجواب: كلا، ثم كلا، تُلغى مظاهر التمييز والتفرقة كلها من الآن. ثم ذكر ثلاثة أمثلة من هذه العادات، وترك الباقي منها بحسب أساليب اللغة العربية إذ يذكرون بعض الأمثلة ويعتبرون الباقي ضمنها. فبذكر الأمثلة الثلاثة هنا ذكر الأمور الأخرى ضمنًا. وأمر أن يُقتل القاتل أيًّا كان قصاصا للمقتول أيًا كان.

وهذا ما تؤكده سنة الرسول ﷺ.. فقد قتل رجلا قصاصا لقتله امرأة(صحيح مسلم، القصاص). وكذلك أمر النبي بقتل الحر قصاصا لقتله عبدا، وفي رواية لسمرة بن جندب(أن النبي ﷺ قال: من قتل عبده قتلناه ومن جدعه جدعناه) (ابن ماجة، أبواب الديات).

قوله تعالى (فمن عُفي له من أخيه شيء فاتّباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان).. أي لو أراد ورثة القتيل لمصلحة أن يعفوا عن القاتل فلهم هذا الخيار. ويستدل بعض الناس من ذلك أنه لا يحق للحكومة أن تقبض على القاتل أو تعاقبه، بل هذا حق لأهل القتيل. ولكن الاستدلال غير صحيح. كل ما قيل هنا أنه لو عفا ورثة القتيل

عن القاتل إحسانا إليه فعلى الحكومة أن تحترم رغبتهم هذه. وباستثناء هذا العفو ليس لورثة القتيل أي علاقة بالقاتل. أما حبس القاتل ومحاكمته ومعاقبته فهذا من اختصاص الحكومة، وهي المسئولة عن ذلك.. لقوله تعالى (كتب عليكم القصاص في القتلى). فقد فُوِّض هنا إلى المسئولين في الحكومة واجبُ التحقيق والمحاكمة وإنزال العقوبة بالمجرم.

وقد يقول البعض عن حق العفو هذا الذي منحه الإسلام لورثة القتيل أن فيه مخاطر ومفاسد ومضار، فمثلا يمكن أن يدبر الأهل لقتل أحدهم بيد شخص آخر ثم يعفوا عن القاتل الذي اتفقوا معه. وهذه شبهة واردة. ولكن الإسلام قد أزال كل هذه المخاطر ووضع لها العلاج. فمن ناحية منح حق العفو للإصلاح بين الأسرتين المتخاصمتين، ولكنه من ناحية أخرى سدّ أبواب الأعمال غير الشرعية كهذه، فقد اشترط في العفو أن يكون فيه إصلاح، ومعنى ذلك أن العفو جائز فقط إذا كانت نتيجته الإصلاح. أما إذا كان العفو سببا للفساد فلا يجوز العفو، وللحكومة أن تعاقب القاتل رغم عفو الورثة. فقد ذكر الطبري حادثا من زمن سيدنا علي – رضي الله عنه –يدل على أنهم منذ بداية الإسلام كانوا يأخذون هذا الاحتياط والحذر. يروي عدل بن عثمان: رأيت عليًا همَّ خارجًا من همدان، فرأى فئتين تقتتلان، ففرَّق بينهما، ثم مضى. فسمع صوتا: يا غوثًا بالله! فخرج يحضر نحوه حتى سمعت خفق نعله وهو يقول: أتاك الغوث. فإذا رجل يلازم رجلا فقال: يا أمير المؤمنين، بعتُ من هذا ثوبا بتسعة دراهم وشرطتُ عليه ألا يعطيني مغموزا ولا مقطوعا (أي معيبا أو ممزقًا) وكان شرطهم يومئذ، فأتيته بهذه الدراهم ليبدلها فأبى، فلزمته فلطمني. فقال علي: أبدله. فقال: بيِّنتك على اللطمة؟ فأتاه بالبيِّنة، فأقعده ثم قال: دونك فأقِصّ. فقال: إني قد عفوت عنه يا أمير المؤمنين. قال: إنما أرد أن أحتاط في حقك، ثم ضرب الرجل تسع درَّات وقال: هذا حق السلطان (تاريخ الطبري: سنة ٤٠). فصحيح أن الإسلام قد منح الحق للمظلوم أو لورثة المجني عليه أن يعفوا عن الجاني، ولكنه أيضا منح الحق للحكومة أنها إذا شعرت أن المجني عليه ضعيف العقل، أو أن العفو عن الظالم سوف يشجعه على ارتكاب الجريمة، أو أن

أولياء القتيل لا يعرفون مصلحتهم أو مصلحة المجتمع، أو أنهم شركاء في الجريمة.. فللحكومة إنزال العقاب بالمجرم رغم عفوهم عنه. وهل هناك طريق أفضل من ذلك للإصلاح وتوطيد الأمن في العالم؟ فإذا كان العفو عن المجرم يؤدي إلى مخاطر من ناحية، فإن المجرم أحيانا يرتكب الجريمة، ولكنه يندم عليها ويترعج ورثته ويكونون في حال يرثى لها.. وتقضي الرحمة أن يُعفى عنه. وفي بعض الأحيان يقدِّر أولياء القتيل أن العفو عن المجرم أوْلى. ولمثل هذا الموقف لا تقدم الحضارة العصرية أي حل يشفي غليل الطرفين ويحقق رغباتهم، ولكن الإسلام قام بذلك قبل ثلاثة عشر قرنا ووضع زمن المدنية المظلمة من القرن السابع أساسا لمدنية راقية لا يستطيع أن يقدم لها نظيرًا أحد من حكماء القرن العشرين.

ولكن كما سبق أن ذكرنا.. فالعفو ليس من خصوصيات الحاكم وإنما هو حق لورثة القتيل. نعم، إذا رأى الحاكم أن عفو ورثةٍ يؤدي إلى بعض المضار والمفاسد فله أن يلغي العفو، كما ثبت مما فعل سيدنا علي رضي الله عنه. وإذا أصر الوارث على القصاص فمن واجب الحكام أن يقتصوا له.

وبقوله تعالى (من أخيه) أشار إلى أن القتل لا يقع أحيانا بسبب العداوة والبغض، وإنما بسبب حماس وثورة مؤقتة. فبقول (أخيه) شفع إلى الورثة كي يرحموا القاتل لأنه أخوهم، ارتكب جريمة خطأ، فليتركوه وليعفوا عنه. ومن ناحية أخرى فيه تبكيت ولوم للقاتل يدفعه للندم، وكأنه يقول له: ألم تخجل من قتل أخيك؟

وقوله تعالى (فمن عفي له من أخيه شيء).. أورد كلمة شيء بصورة النكرة التي قد تعني التعظيم أو التحقير. والمراد من (شيء) هنا إما العفو التام أو بعض العفو. أي لولي القتيل ألاّ يطلب القصاص بقتل القاتل بل يكتفي بأخذ الدية أو جزء منها.. أو يعفو عفوا كاملا فلا يطلب إعدام القاتل ولا يأخذ دية. فهو مُخيَّر بين الخيارين. وإذا عفا بعض الورثة و لم يعف الآخرون.. وكأن يكون للقتيل ابنان، فيعفو أحدهما ويرفض الثاني.. فلا يُقتل القاتل. ولكن إذا رأى الحاكم أن للورثة يدًا في الجريمة فعَفَوا، فللحاكم أن يلغي هذا العفو ويعاقب القاتل، ولا حق لهم عندئذ في الإرث أيضا.

وقوله تعالى (فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان) يعني أن يستوفي أصحاب الدية حقهم بطريقة طيبة، فإذا كان الطرف الآخر مُعسِرا فلا يتشددون في المطالبة وإنما يمهلونه. وعلى المعفي عنه أن يبذل جهدا صادقا في أداء الدية ولا يتكاسل ولا يماطل، بل يسرع ولو تحمّل مشقة.

قوله(ذلك تخفيف من ربكم ورحمة).. أي أن الله قد يسر بذلك لكم الأمور وهيأ الأسباب من رحمته.. فيجب أن تضعوا هذا في الاعتبار وتقدروه حق قدره.

قوله تعالى (فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم).. أي لو أن ورثة القتيل أخذوا ديتهم ثم قتلوا القاتل أو أحدا من أسرته فلا يستحقون أي رحمة. بل يعاقَبون بشدة.. أي لا تسمح الحكومة بالعفو عن مثل هذا القاتل حتى لا تكثر مثل هذه الأفعال الهمجية التي تفسد الأخلاق القومية ولا تُبقى سلطة واحتراما.

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٨٠)

شرح الكلمات:

الألباب –جمع لُبّ وهو ما في جوف الجوزة. والمراد هنا العقل (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى: أيها العقلاء، في القصاص حياة لكم، فلا تهملوه أبدا. وهنا سؤال: مات القتيل، وإعدام القاتل لن يحيي القتيل، فكيف يكون في القصاص حياة؟

والجواب: يجب أن نتذكر أنه إذا لم يترل العقاب بالقاتل فمن الممكن أن يَقتل شخصا آخر غدا، وشخصا ثالثا بعد غد.. لذلك قال: لكم في القصاص حياة.. أي إذا لم تقتصوا من القاتل فإنه يقضي على حياة أحد آخر منكم، ولكنه لو عوقب بالموت فسوف تقل أحداث القتل غدا، وهكذا تُحمى حياة كثير من النفوس.

كما أن قوله تعالى (ولكم في القصاص حياة) يعني أن عقاب القاتل يشفي قلوب ورثة القتيل من البغض والضغينة، ولكن لو لم يترل العقاب بالقاتل لظلت العداوة

والبغضاء كما هي في قلوب أهل القتيل، إذ يرون أنهم قد أهينوا بقتل أحدهم. فالقصاص سبب لتوطيد شرف القتيل وشفاء لنفوس الورثة.

وأرى أن في هذه الآية نبأ يتعلق بزمننا هذا، لأن العرب كانوا عاملين بالقصاص متمسكين به في قوة. لو قُتل أحد لظلوا يطلبون القصاص حتى من حفيد القاتل. فهذا التعليم ليس للعرب فقط، بل إنه في الحقيقة نبأ يُخبر أنه سيأتي يوم يدعو فيه الناس إلى إلغاء عقوبة القصاص، فلتتمسكوا عندئذ بهذا التعليم بقوة ولا تفرطوا فيه. وهذا يحدث في هذه الأيام في بعض البلاد الأوربية حيث تقوم حركات من وقت لآخر داعية إلى إلغاء عقوبة الموت. يقول الله تعالى: يا أيها العقلاء، لا تصغوا إلى هذه الحركات وإلا تكون العواقب وخيمة، ولن تبقى لنفوسكم قيمة. فقال(لعلكم تتقون).. أي أن الهدف من هذا التعليم أن تتقوا من القتل وتنالوا الحياة التي تكون بعد القصاص. ولو تركتم القصاص لانهارت حضارتكم. فحذار أن يختل نظامكم وتنهدم حضارتكم ولا يبقى لنفوسكم حرمة ولأموالكم قيمة.

ولقوله تعالى (لعلكم تتقون) معنى آخر فهَّمني الله إياه. وهو أنه جل علاه بيّن بهذه الكلمات أنكم في حاجة إلى هذه الحياة واستمرارها لكسب مزيد من التقوى. كأنه يقول إن إضاعة الحياة بدون جدوى محظور، لأن الدنيا دار العمل، يجمع فيها الإنسان زادًا للآخرة. فالحفاظ على الحياة ضروري للتزود بالتقوى. فبهذه الكلمات بيّن الله السبب وراء حفاظ المؤمن على حياته رغم إيمانه بالآخرة.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨١)

شرح الكلمات:

خيرا –قالوا: ترك خيرا أي مالا. وقال بعض العلماء: لا يقال للمال خير حتى يكون كثيرا ومن مكان طريق طيب (المفردات).

التفسير: لقد أمر الله هنا بالوصية للوالدين والأقربين. وهنا ينشأ سؤال: ما هي هذه الوصية التي أمرنا بها، مع أن أحكام الوراثة قد نزلت في سورة النساء بالتفصيل؟ وبعد نزولها تكون أي وصية للورثة الأقارب بلا معنى.

يقول البعض في هذا الصدد أنه ما دامت أحكام الوراثة قد نزلت في آيات أخرى من القرآن الكريم.. فهذه الآية منسوخة ولا مجال للعمل بها.

ولكننا نرى أنه ليست هناك آية منسوخة في القرآن الكريم. إن عقيدة النسخ في الآيات القرآنية ظهرت نتيجة لقلة التدبر.. عندما لم يستطع المفسرون فهم الآية قالوا بنسخها، وهكذا اعتبروا مئات الآيات القرآنية منسوخة، ولو أنهم أيقنوا أن كل لفظ وكل حرف من القرآن المجيد قابل للعمل.. لتَدَبَّروا في هذه الآيات الصعبة، وإذا لم يستطيعوا حلها وفهم معانيها أنابوا إلى الله مبتهلين أن يعينهم على فهم حقيقة كلامه عز وجل. ولو فعلوا ذلك لهداهم الله إلى الصواب، ولرأوا حلاً لها. ولكنهم لسوء الحظ اختاروا طريقا سهلا.. فاعتبروا كل آية لا يفهمون معناها منسوخة، وهذا ما فعلوا بهذه الآية أيضا.

لو نظرنا إلى هذه الآية على ضوء المعنى الذي نورده لها لتبين أن الأمر بالوصية حكيم للغاية، ولا داعي لاعتبار الآية منسوخة. الحق أن كلمة الوصية هنا جاءت بمعنى التأكيد العام؛ وأكبر دليل على ذلك أن الله ذكر هنا الوالدين والأقربين و لم يذكر الأولاد.. مع أن ذكر الأولاد كان ضروريا لما للإنسان من علاقة قلبية بهم. وهذا يعني أن الموضوع هنا لا يتناول الميراث وتوزيعه بين الورثة، بل أمرا آخر. إن سياق الآية يبين أن الأمر هنا يتعلق بالحرب أو ما يشبهها من أحوال. فقبل ثلاث آيات ذكر الحرب (الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس) (الآية١٧٨). ثم بعد آيتنا هذه أمر بالقتال (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم) (الآية١٩١). وبما أن المشتركين في الحرب هم عموما من الشباب الذين لا يكون لهم أولاد أو يكونون صغارا.. لذلك أمر بالوصية في حق الوالدين والأقربين دون ذكر الأولاد، وقال إنه إذا اقترب موت أحد أو كان بصدد الذهاب إلى مكان يتعرض فيه لخطر الموت..

وكان ذا مال كثير.. فَلْيُوصِ وليؤكد على أهله بتوزيع إرثه بين الورثة حسب الشرع.. حتى لا يحدث أي نزاع أو خصومة بينهم فيما بعد. ويكون التأكيد موجها إلى أقاربه مباشرة بدلا من غيرهم. وإذا أراد أن يتصدق بجزء من ماله فعليه أن يذكر هذا أيضا ويؤكده في وصيته.

وأرى أنه لو اتبع المسلمون هذا التعليم وعملوا به لم تستمر فيهم أبدا تلك التقاليد والعادات المعارضة للقسمة الشرعية للتركة. يمكن ألا تكون مثل هذه التقاليد والعادات موجودة في بلد تطبَّق فيه الشريعة الإسلامية تماما، ولكن تكون الحاجة ماسة إلى أن يوصي ويؤكد الإنسان الوصية في حق والديه والأقربين كي تُقسم تركته بينهم بالمعروف.. في تلك البلاد التي تسير بحسب التقاليد والعادات غير الإسلامية.. وإلا حُرم المستحقون وأخَذ الأموال من لا يستحقها.

والسؤال الآن: ما هو المعروف في قوله تعالى (بالمعروف)؟

والجواب: أولا: إن الأحكام الشرعية للميراث هي المعروف، فيجب أن يوصي المورث ويؤكد العمل بها. وثانيا: هناك حقوق خارجة عن دائرة أحكام الوراثة، لم تذكر تحتها، ولكنها مستحبة على صعيد الدين والأخلاق، وقد تركت الشريعة الباب مفتوحا ليوصي المتوفَّى حتى بثلث المال لأهل هذه الحقوق. فمثلا يمكن أن يقف بعض أمواله إذا شاء للإنفاق على الفقراء ويوصي بذلك أهله.

ولقوله تعالى (الوصية للوالدين والأقربين) معنى آخر هو أن الورثة إذا كانوا كفارًا فليوص بحسن معاملتهم وإعطائهم شيئًا من ماله، لأن والديه وأقاربه في حالة كفرهم لا يمكن أن يرثوا شيئا بحسب الشرع لأنهم سينفقون هذا المال في محاربة الإسلام. فإذا وجدهم يستحقون المعونة، وأن إعطاءهم بعض المال فيه مصلحة وخير.. فليوص بإعطاء نصيب معين من الإرث لمن يراه منهم. أما إذا رأى أنهم سوف يستخدمون هذا المال في محاربة الإسلام فلا يوص لهم بشيء.

والمعنى الثالث لقوله تعالى (الوصية للوالدين والأقربين) أنه يمكن للمورِّث أن يوصي بشيء من إرثه لأحفاده وأبناء إخوته.. وهكذا يقوم بإعانتهم بدون أي مخالفة لأحكام الشرع. لأنه بحسب قانون الوراثة الإسلامي إذا كان للمورث ابن مات في

حياته تاركًا وراءه أولادًا فإنهم لا يرثون من تركة الجد المورِّث شيئا. في هذه الحالة يمكن أن يوصي الجد-في حدود ثلث ماله-لحفدته وحفيداته هؤلاء.

أما البلاد غير الإسلامية، التي لها قوانين محلية للإرث فهي على قسمين: بعضها تأخذ بوصية المتوفَّى مثل روسيا، وبعضها لا تأخذ بها، وإنما تعمل بقوانين شرعتها الحكومة. فالبلاد التي تقبل بوصية المتوفَّى يمكن أن تنفع فيها هذه الوصية.. حيث يمكن للأقارب الورثة المحرومين من الإرث بسبب القوانين المحلية أن ينالوا نصيبهم بحسب الأحكام الشرعية نتيجة لهذه الوصية، وهكذا تحيا التعاليم الإسلامية في بلاد ليس فيها حكومات إسلامية، ولكن أهلها يرون العمل بوصية المتوفَّى ضرورية. أما البلاد التي لا يمكن فيها تقسيم الإرث طبقا للشريعة الإسلامية.. فإنه وإن لم يستطع الورثة الحقيقيون الحصول على نصيبهم من الإرث إلا أن المسلمين نتيجة لإعلانهم هذه الوصية سوف يتجنبون هذا الإثم المترتب على مخالفة أحكام الشرع، ويقع الذنب على من يخالفون هذه الوصية من رجال الحكومة.

إلا أن هذه الوصية لا تعني أن يعطي المورث أحدا من الورثة أكثر مما عيَّنت له الشريعة الإسلامية من الإرث. فقد نهى الرسول ﷺ عن ذلك نهيا شديدا وقال: (إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث) (الترمذي، أبواب الوصايا).

إذن فليست هذه الآية منسوخة، وليست بلا ضرورة وبدون داع. فكثير من الأحيان يختصم الورثة على تقسيم الإرث بعد وفاة المورث، وأحيانا يطالب بعض الأقارب غير الورثة قائلين إن المتوفَّى وعدنا بكذا وكذا، فأمر الله أن يدلي المورث بهذه الوصية حتى يسد أبواب النزاع والخصومة بين أهله.. ولا يدعي أحد أو يطالب بشيء، ويجب أن تكون هذه الوصية أمام أقاربه.

وباستخدام كلمة (خيرًا) للمال أشار الله إلى أن ما يكسب بطرق شرعية هو المال الحقيقي، فعليكم أن تكسبوه دائما بطريق الحلال، وتسعوا لجمع الحلال. أما المال الذي يُكتسب بطرق غير شرعية فلا يكون خيرا. وإنما يصبح شرا.

وكذلك نصح بقوله (إن ترك خيرا) بأن الإنسان يترك كل ماله لمن خلفه، ويرحل من هذه الدنيا صفر اليدين، وإذن فلماذا يكسب الحرام، فيأكله الآخرون، ويدخل

هو بسببه جهنم، فلا تكسبوا المال من حرام لتتركوه بعدكم، بل عليكم أن تكسبوا من حلال، وإلا فالمال الحرام ليس بمال لكم.. فكيف توصون به؟!

فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨٢)

التفسير: يقول الله تعالى إنه إذا قام أحد بوصية، وحاول غيره تغييرها، فالإثم في عنق من يغيرها. وهذا التغيير يتم بطريقتين: الأولى: أن يملي الموصي وصيته بكلمات فيكتبها الكاتب –بنية شر–بكلمات أخرى تعكس المراد، فكأنه يقوم بتغيير الوصية أمام الموصي أثناء كتابتها. أما الطريقة الثانية فهي أن يغيرها بعد وفاة الموصي، أي لا يعمل بحسب ما أوصى به، بل يخالف وصيته عند تنفيذها. وفي كلتا الحالتين يكون وبال هذا الإثم على من يغيرها. وفي قوله (إثمه) ذكر السبب مكان المسبَّب.. إذ ليس المراد الإثم وإنما وبال الإثم.

تبين هذه الكلمات أنها إشارة إلى بعض أحكام القرآن، وهذا الحكم هو حكم الوراثة، وإلا فما معنى قوله تعالى (إنما إثمه على الذين يبدلونه).. وليس إثمه على الموصي، لأن تفاصيل الوصية إذا كانت معارضة للشرع.. فلماذا يكون الإثم على من يبدلها؟ إنما يكون المبدل آثما فقط إذا كان يخالف حكما شرعيا. فهذه المخالفة هي أن يكون المتوفى قد أوصى بأمواله بحسب الأحكام الشرعية، ولكن الورثة لم يعملوا بوصيته، وعندئذ لا يكون الإثم على الموصي وإنما الورثة الذين يغيرون الوصية هم الآثمون.

فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٣)

شرح الكلمات:

جنفا –جنَفَ في الوصية: مالَ وجارَ (الأقرب).

التفسير: قال الله هنا إنه لو عرف أحد أن في وصية الموصي عيبًا أو فسادًا يثير الفتنة، وجمع الورثة وأصلح بينهم فلا إثم عليه. يجب ألا يُظن أنه ما دام قد وصّى بتوزيع أمواله بحسب الشريعة فكيف يمكن احتمال أن يلحق ضرر بالورثة الحقيقيين؟ ذلك لأنهم لو عملوا بوصيته ووزّعوا الأموال بحسب الشريعة فأيضا هناك احتمال للضرر. مثلا يوصي بالثلث من ماله لغير الورثة الأصليين مع أنهم كثيرون، فلا يبقى لهم إلا قليل من المال. وعندئذ لو قام أحد بالإصلاح بين الموصي وبين ورثته المتضررين، أو بالإصلاح بين الموصى لهم وبين الورثة المتضررين ويرضيهم بأداء الحقوق لأصحابها رغم وصية الموصي.. فلا إثم في ذلك، بل عليه أن يقوم بهذا حتى لا تكون فتنة.

وهناك صورة أخرى هي أن يكون الموصي عند إملاء الوصية يلحق الضرر بفريق من هؤلاء، ويدرك الكاتب أن بينه وبين هذا الفريق خصومة أدت إلى هذا التصرف الضار.. فعليه أن ينصح الموصي حتى لا يفعل ذلك، ويقوم بالإصلاح بينه وبين ورثته المتضررين.. وإذا فعل ذلك فلا اعتراض على عمله.

وقوله تعالى (فلا إثم عليه) لا يعني أبدا أن الإصلاح المذكور غير محبب إلى الله، وأنه حسنة لا خطر على صاحبها من الإثم. كلاّ، إن جملة (فلا إثم عليه) لم تستخدم لبيان أن هذه الفعلة حسنة سلبية، وإنما قال ذلك لأنه وضح في الآية السابقة صراحة أن (من بدَّله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه)، أي الآثم عند الله هو من يبدل الوصية. فكان هناك خطر أن يخشى أصحاب الطبائع الحذرة التدخلَ في قضية الوصية، ويتجنبوا الخوض فيها وإن كان بها فساد، فلا يقوموا بتعديلها وإصلاح ما بين الفريقين.. خوفا من أن يجلبوا بذلك سخط الله عليهم. ودفعا لمثل هذه المخاوف قال الله هنا إنه إذا كان في الوصية فساد أو خطأ فإزالته منها ليس إثما وإنما هو عمل حسن تثابون عليه وتكونون أهلا لفضل الله تعالى.

وبقوله تعالى (إن الله غفور رحيم) طمأن وبشَّر الموصي أنه إذا أصلح خطأه في وصيته فإن الله الغفور سوف يغفر له. وبقوله (رحيم) أشار إلى أن من يتدخل

ويسعى لإزالة النقص والفساد في الوصية فإن الله سوف يرحمه ويجعله موردا لأفضاله.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٤)

شرح الكلمات:

تتقون –التقوى هي جعل النفس في وقاية مما يُخاف؛ وفي الاصطلاح الشرعي حفظ النفس عما يُؤثِم(المفردات) [لمزيد من الشرح راجع المجلد الأول تحت (هدى للمتقين) الآية ٣].

التفسير: هناك من شدائد الدنيا ما هو فردي يرد على بعض الأفراد، فيضيق بها ويشكو من عدم قدرته على تحملها، ولكن هناك شدائد أخرى يشترك فيها الجميع، فإذا ضاق منها أحد واشتكى يطمئنه الناس قائلين: يا صاح، هذه الأيام تأتي على كل إنسان، ولا يتوقع أحد أنه بمنجاة منها. فمثلا الموت سيأتي على كل إنسان، ولا نجد أحدا من البسطاء أيضا يقول إنني أسعى للنجاة من الموت، بل إن الموت آت لا محالة عاجلا أو آجلا. فبقوله تعالى (كما كُتب على الذين من قبلكم) نبّه المسلمين أن الصيام عملُ خيرٍ وثوابٍ وتضحيةٍ مشتركٌ بين جميع الأديان، ولقد قام أتباعها بهذه العمل طاعة لله تعالى. ومن المؤسف جدا أن تفرُّوا من عمل خير وتقوى حاولت كل الأمم الحصول عليه. لو كان أمرا جديدا وفرضا عليكم وحدكم لم تُسبقوا إليه لجاز لكم أن تقولوا للناس: لا تدرون مدى المشقة في الصيام إذ لم تجربوه، ولكن ماذا يكون جوابكم للذين قد مرُّوا من هذا الباب وتحملوا هذا العبء؟ ولا شك إنما تكون الحجة للأمم السابقة على المسلمين فقط فيما أمرتْ به من الله تعالى وأطاعته فيه. فيقول الله: أيها المسلمون، احذروا. لقد فرضنا عليكم الصيام، ونخبركم أيضا أنه كان مفروضا على الأمم السابقة، وأنهم قد أدُّوا هذه الفريضة قدر المستطاع. ولو أنكم قصَّرتم في أدائها لاعتراض عليكم أهل

الأمم السابقة وقالوا: لقد فرض الله علينا الصيام، وعملنا بالأمر الإلهي. ولما فرض عليكم لم تستجيبوا لأمر الله كما ينبغي. كأن الله قد استثار بهذه الطريقة غيرة المسلمين ورفع همتهم.

لا شك أن صورة الصيام كانت مختلفة من أمة إلى أخرى، ولا يزال هذا الاختلاف باديا إلى اليوم. فمنها صوم الوصال، حيث كانوا لا يأكلون السحور، وإنما يفطرون وقت الليل فقط، ويصومون لأربع وعشرين ساعة. وكان البعض لا يفطرون ليلا أيضا وإنما يصومون لثلاثة أو أربعة أو خمسة أيام متوالية بدون إفطار. وعند بعض الأمم كان مسموحا لهم بطعام خفيف. أما تناول الطعام الصلب فكان ممنوعا.. كما هو الحال في صيام الهندوس والمسيحيين. فالمشهور عن صيام الهندوس أنهم لا يأكلون ما طبخ على النار، ولكن مسموح لهم أن يأكلوا مثلا ما شاءوا من المانجو أو الموز أو الكمثري.. وهذا لا يضر صومهم، ولهم أن يأكلوا أي شيء في صومهم باستثناء رغيف الخبز والطبيخ.

وصيام المسيحيين الكاثوليك أخف من هذا أيضا. ولا شك أنهم بدءوا بهذا الصوم بناء على رواية دينية، أو بلغهم هذا الأمر عن طريق أحد الحواريين. وفي صيامهم يمتنعون عن أكل اللحم (الموسوعة البريطانية، كلمة الصوم) ولكن لهم أن يأكلوا البطاطس مع الخبز أو الخضار ولا بأس في ذلك، أما إذا دخلت قطعة من اللحم إلى المعدة فسد الصيام عندهم.

إذن هناك اختلاف في صورة الصيام بين أمة وأخرى. ولا شك أن الله قد أودع حِكمًا في هذه الأوامر الصادرة في مختلف الأزمان. فمثلا الأمم التي تعتاد القتال والحروب، وتعيش على القنص والصيد، وتُكثر من أكل اللحم لمدة طويلة فإنها تتعرّى من أخلاق محمودة تتحلى بها أمم تأكل الخضار والنباتات. فلو قال لهم الله –إصلاحا لأخلاقهم –إن الخضروات أيضا غذاء طيب وضروري وأمرهم بالإمساك عن أكل اللحم مرة في الأسبوع.. فهذا أيضا صوم مليء بالحِكم. أما نحن المسلمين فقد أمرنا الله أمرا عامًا بأكل اللحم والخضراوات وما طبخ على النار وما لم تمسه النار، وهكذا جمع الله في طعامنا كل نوع من الاحتياط والحكمة. وربما

كان مثل هذا الاحتياط بمثابة قيود شاقة على الأمم السابقة، ومن أجل إصلاح أخلاقهم فرض الله عليهم صيامًا كهذا.

وقوله تعالى (كما كتب) يعني مماثلة في الفرضية، وليس في الكمية والكيفية والتفاصيل. وليس المراد أن صيامهم كصيام المسلمين في الكيفية والعدد، وإنما المراد أن الصيام في حد ذاته قد فُرض على المسلمين. فقد جاء في الموسوعة البريطانية، تحت كلمة الصوم:

It would be difficult to name any religion system of any description in which it is wholly unrecognized

.... أي يصعب أن نجد ملة ليس فيها حكم الصوم بصورة ما.. بل في كل دين هناك أمر بالصوم. وعندما ننظر إلى الدين اليهودي نجد أنه ورد في التوراة أن موسى –عليه السلام –عندما ذهب إلى الطور صام أربعين يوما وليلة، و لم يأكل أو يشرب فيها، قيل: (وكان هناك عند الرب أربعين نهارًا وأربعين ليلة و لم يأكل خبزًا و لم يشرب ماء) (خروج ٢٨: ٣٤). كذلك جاء في التوراة أنه فرض على اليهود صوم اليوم العاشر من الشهر السابع (لاويين٢٩: ١٦). وكان بنو إسرائيل يصومون هذا اليوم دائما، وكان أنبيائهم يصومون بذلك. فقد جاء عن داود عليه السلام: (أما أنا ففي مرضهم كان لباسي مِسْحا. أذللت بالصوم نفسي) (مزامير ١٣: ٣٥).

وقال النبي إشعياء (ها إنكم للخصومة والتراع تصومون ولتضربوا بلكمة الشر. لستم تصومون كما اليوم لتسميع صوتكم في العلاء (إشعياء ٤: ٥٨).

وقال دانيال: (فوجهت وجهي إلى الله السيد طالبا بالصلاة والتضرعات بالصوم والمسح والرّماد) (دانيال ٣: ٩).

ويقول النبي يوئيل: (لأن يوم الرب عظيم ومخوف فمن يطيقه. ولكن الآن يقول الرب: ارجعوا إليّ بكل قلوبكم وبالصوم والبكاء والنوح: ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم، وارجعوا إلى الرب إلهكم، لأنه رؤوف رحيم بطيء الغضب وكثير الرأفة ويندم على الشر (يوئيل ١١: ٢-١٣)

وإذا نظرنا إلى المسيحية وجدنا فيها أيضا ذكر الصيام. يقول الإنجيل عن المسيح عليه السلام إنه صام أربعين يوما وليلة (متى ٢: ٤).

وكذلك نصح المسيح الحواريين قائلا: (ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين، فإنهم يُغيِّرون وجوهم لكي يظهروا للناس صائمين. الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم. وأما أنت فمتى صمتَ فادهن رأسك واغسل وجهك، لكي لا تظهر للناس صائمًا، بل لأبيك الذي في الخفاء. فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية) (متى ١٦: ٦-١٨).

كذلك يذكر الإنجيل أنه عندما لم يستطع الحواريون إخراج روح شريرة ذهبوا إلى المسيح وسألوه عن السبب فقال لهم: (هذا الجنس لا يمكن أن يخرج بشيء إلا بالصلاة والصوم) (مرقس٩: ٢٩) [١٢]. والروح الشريرة أو الجن اصطلاح كان يطلقه الحواريون على أمراض مختلفة، وكانوا يلتمسون من المسيح إخراج هذا الجن. يريدون بذلك شفاء هذه الأمراض العقلية. وقد عالج المسيح هؤلاء المرضى فشفوا على يده. وعندما لم يستطع الحواريون مرة إخراج روح شريرة كهذه قال المسيح إن هذا الجن لن يخرج إلا بالصوم والدعاء.. وكان يقصد أن الحصول على الكمالات الروحانية لا يتم إلا بالصوم والدعوات.

ولكن العجيب أن المسيح الذي قال بأن الأمراض الشديدة لا تُشفى إلا بالصيام والدعوات.. تغفل أمته اليوم عن الصيام لدرجة أنهم ربما يأكلون في اليوم الواحد ما يأكله الآسيويون في أسبوع.. فأنّى لهم أن يصوموا؟ إنهم لا يقتربون من الصوم. يصومون ثلاثة أيام في العام، ولكن بأسلوب الهندوس الذين يمسكون عن أكل ما طُبخ على النار، ومع ذلك يشرب أحدهم لترين من الحليب! وكذلك يمسك المسيحيون عن أكل بعض أنواع الطعام، ويأكلون ما سواها في صومهم كيفما يشاءون، ويظنون أنهم صاموا. ومع أن المسيح كان من اليهود الذين كانوا

[١٢] حُذفت هذه الفقرة الآن من بعض الطبعات!

يصومون صوما كاملا، ومع أنه نفسه يُخبر بأن العديد من الجن –أي الأمراض الروحانية والبدنية –لا تُطرد ولا تُشفى إلا بالدعاء والصيام.

وإذا نظرنا إلى دين الهندوس وجدنا أيضا أنواعا من الصيام، ولكل نوع من شروط وقيود تفصيلية مذكورة في كتاب"دهرم سندو". وقد ورد ذكر الصيام عند الهندوس والجينيّين في الموسوعة البريطانية. وذكر فيه أيضا عن ديانة الزردشتيين أن كونفشيوس أمر أتباعه بالصوم؟ (الموسوعة البريطانية، تحت كلمة صوم).

بل قد ظهر في هذه الأيام نوع جديد من الصوم. فعندما يتخاصم بعض الناس فإنهم يضربون عن الطعام احتجاجا. وقد قام "الباندت غاندي" بالإضراب عن الطعام مرارًا احتجاجًا ضد الإنجليز.

فالصوم إذن وسيلة من وسائل الرقي الروحاني ونيل رضوان الله في كل الأديان، وكل الأمم قد نالت بركات الصيام.

وندرك بإلقاء نظرة على تاريخ طويل للأديان أن عالم الدين كله سلَّم واعترف بأهميته دوما. ولكن مما لا شك فيه أن الصورة التي قدم الإسلام بها الصوم صورة مميزة بين جميع الأديان. يأمر الإسلام كل عاقل بالغ بالصوم المستمر شهرا كاملا.. إلا أن يكون مريضا أو على يقين بأن المرض يصيبه إذا صام، أو كان على سفر، أو كان شيخا هرما فانيا، ويأمر المرضى والمسافرين أن يصوموا ما فاتهم في وقت آخر. أما الذين يعجزون عن المرض بسبب ضعفهم فلا صوم عليهم.

والصوم هو الإمساك من طلوع الفجر إلى غروب الشمس عن تناول أي شيء من مأكل ومشرب.. بقدر قليل أو كثير، والكف عن المباشرة الجنسية. يتناول الصائم طعام السحور قبل طلوع الفجر حتى لا يتعرض جسمه لمشقة زائدة، ويبادر إلى الإفطار عند غروب الشمس. ولا تحبذ شريعتنا صوم الوصال.. أي مواصلة الصوم بعد الإفطار بدون تناول السحور.

وهناك تساؤل حول قوله تعالى (كما كتب على الذين من قبلكم): هل وجود عادة في أمة سابقة يحتِّم على الأجيال اللاحقة العمل بحسب هذه العادة؟ هناك عشرات العادات الخاطئة في الأجيال السابقة، وهناك عشرات من العادات الخاطئة

في الأجيال الحالية أيضا. فليس صحيحا أن يكون لأمة عبادة معينة ثم يكون لزاما على من بعدهم أن يقوموا بها أيضا!

لقد أقام القرآن الكريم لهذا الاعتراض وزنا. فإنه لا يعتبر وجود الصيام في الأمم السابقة دليلا على فضائله، وإنما يقول هنا إن الصوم ليس ثقلا زائدا يلقى على كواهلكم، بل كان واجبا على الأوّلين أيضا، فوجود الصوم في الأمم السابقة ليس دليلا على فضيلته وإنما على أهميته، أما فضائل الصوم ومنافعه فقد ذُكرت في قوله تعالى (لعلكم تتقون).. أي لقد فرضنا عليكم الصيام كي تنجوا وتحتموا.

ويمكن فهم قوله تعالى (لعلكم تتقون) بعدة طرق، منها مثلا: لقد فرضنا عليكم الصيام حتى تتقوا لوم الأمم الأخرى التي كانت تصوم وتحملت مشقة الجوع والعطش وشدة الطقس إرضاء لله تعالى. فإن لم تصوموا تعرضتم لنقد الآخرين بحق، وصرتم محط تحقير في أعينهم، وقيل لكم: تدّعون أنكم أكثر الأمم روحانية، ولكن ليس فيكم التقوى التي كانت في الأمم السابقة؟ فلولا الصيام في الإسلام لتعرض المسلمون لسهام اللوم من الأمم الأخرى جميعا. ولقال المسيحيون مثلا: كيف يمكن أن يكون دينا ليس فيه الصيام الذي تصفو به القلوب وترتقي الروحانية، ويحتمي الإنسان من السيئات؟ وكذلك لقال اليهود: لقد صُمنا لمئات السنين، ولكن المسلمين لا صوم عندهم. ولقال الهندوس والزردشتيون وكثير غيرهم من الأمم: كيف يمكن أن يكون الإسلام دينا صحيحا ولا صوم عندهم، بينما نحن نصوم ونرضي الله؟

وثانيا –يشير قوله تعالى (لعلكم تتقون) إلى أن الصائم يحتمي بالله تعالى، لأن الاتقاء هو اتخاذ الوقاية واتخاذ الشيء ذريعة للنجاة. إننا فرضنا عليكم الصيام حتى تتخذوا الله جُنّةً تقيكم من الشرور، وتحميكم من فوات الخير. فالضعف على نوعين: الأول–أن يصاب الإنسان بشرّ، والثاني –أن يضيع منه الخير. فإذا ضربه أحد فقد أصابه بشر، ولكن من الشر أيضا أن يجلب المرء على نفسه سخط الوالدين، مع أنه ليس في سخط الوالدين وتركهما بيت ابنهما ضرر ظاهري عليه، بل سوف يتمكن من توفير بعض النفقات، ولكن رضا الوالدين خير وبركة، وإذا

سخطا عليه حُرم من هذا الخير. فالاتقاء يدل على جانبين من الشر.. أي أن يميل المتقي إلى فعل الخير، وأن يُحفظ من الشر والذلة.

ودائرة الخير والشر تختلف باختلاف المجالات. فمثلا إذا كان أحد مسافرا في السيارة فاتقاؤه من الشر يعني أن لا يتعرض لحادث مكروه، بل يصل إلى البيت سالما. أما الصوم فلا شك أنه أمر ديني روحاني، ولكن نظرا لما له من تأثير على صحة الإنسان فيمكن أن يُعد أمرا دنيويا أيضا. واتقاء الصائمين يعني أن يتّقوا من الشرور الدينية والدنيوية، فلا تضيع منهم الخيرات والبركات الدينية، ولا يصابوا بضرر صحي. فالصوم أحيانا يحمي من العديد من الأمراض. فإن الفحوص العصرية تبين أن الكِبَر والضعف يصيب الإنسان بسبب ما يتجمع في الجسم من مواد زائدة تحدث المرض والموت. بل قال بعض الحمقى من هؤلاء العلماء الماديين بأننا عندما نتمكن من القضاء على هذه المواد الزائدة نتمكن أيضًا من القضاء على الموت! هذه الفكرة وإن كانت تدل على الحمق، إلا أنه مما لا شك فيه أن الجسم يصاب بالإرهاق والضعف بسبب هذه المواد الزائدة فيه، والصوم عظيم الفائدة في هذا الصدد. لقد رأيت بنفسي أننا لو صمنا بصحة في رمضان فلا شك أننا نشعر بشيء من التعب والمشقة من الصيام، ولكننا بعد انقضائه نشعر بتجدد قوتنا مع نشاط وانتعاش. هذه فائدة مادية في الصيام تتعلق بصحة الجسم.

وثالثا –ولكن هناك منفعة روحانية. فالذين يصومون ويتحملون لوجه الله فإنهم يحظون بحماية الله من عقوبة ذنوبهم. لذلك ذكر الله بعد الصيام موضوع استجابة الدعاء وقال: إنني قريب من عبادي وأجيب دعواتهم. فالصوم يجذب فضل الله، والصائم يجعل وقاية له تحميه من كل الأذى والشرور.

ورابعا–ثم إن الإنسان عندما يحس بالجوع ويشعر بقرصاته وآلامه فإنه يهتم بإخوانه الفقراء. وفي نجاتهم من الهلاك نجاة له أيضا من الهلاك، لأن نجاة بعض الأفراد من القوم تنفع القوم جميعا. ولذلك كان الرسول ﷺ يكثر من الصدقة في أيام رمضان. فقد ورد في الحديث أنه (كان في رمضان أجود بالخير والعطاء من الريح المرسلة) (البخاري، كتاب الصوم). الحق أنه من أكبر أسرار الرقي القومي أن ينفع الإنسان

الآخرين بما يملك. وإنما تحل كل أنواع الدمار والهلاك بالأمة إذا ظن أفرادها أنه لا حق لأحد فيما يملكونه، ولا يمكن أن ينتفع بالشيء إلا مالكه. مع أن أساس نظام ومدنية العالم مبني على مبدأ أن ينتفع غيري بما عندي، وهذا ما يعوِّد عليه رمضان. فالمال مالنا. ومواد الطعام والشراب مِلكنا.. ولكننا مأمورون بأن ننفع بها الآخرين ونطعمهم إياها، لأن هذا هو الأساس لحضارة العالم.

وخامسا —إن الصيام أيضا نجاة للإنسان من الهلاك، بمعنى أنه يعوده على تحمل المشاق. والذين يتعودون المشاق والشدائد بألوانها لا تنهار همتهم عند حلولها، وإنما يتصدون لها بشجاعة ويفلحون وينجون. وكما أن الحكومات الدنيوية تحتفظ باحتياطي من الجنود الذين يتدربون شهرا أو شهرين في السنة، وعند نشوب الحرب يُستدعون على الفور، كذلك أُمر المسلمون أن يتدربوا في شهر رمضان على الصيام.. لأنهم لا يصومون ولا يتهجدون كل أشهر السنة. وكما أن الجنود الذين يواظبون على التدريب لا ينهزمون.. كذلك الأمة التي يكون أفرادها أبرارا أتقياء، ومعتادين على ترك كل شيء لوجه الله تعالى.. لا يمكن أن يُلحق الشيطان بها أي هزيمة. ولهذا السبب نجد في تاريخ المسلمين أنهم ما داموا كجنود روحانيين ما قدر الشيطان على الهجوم عليهم، ولكن عندما قلَّ هؤلاء الجنود بين المسلمين إلى حد الندرة هاجمهم الشيطان وأهلكهم بأنواع الوساوس.

فالصيام يعوّد الإنسان على التضحية. يخرج المؤمنون عموما من بيوتهم لخدمة الدين، كما يتعرضون لمشقة الجوع والعطش في جهادهم للدعوة إلى الله. الفقراء يكونون متعودين على هذه الشدائد، لكن الأثرياء ليسوا كذلك. فالصيام يدربهم هم أيضا على تحمل مشقة الجوع والعطش حتى إذا سمعوا نداء الله أن يا أيها المسلمون، تعالوا وجاهدوا في سبيل الله، هَبّوا جميعا دون تردد أو شعور بثقل على قلوبهم.

فمن أكبر منافع الصوم أنه يدرب الإنسان على تحمل المشقة والشدة في سبيل الخير. إن الإنسان يقوم في الدنيا بأعمال شتى. يجتهد ويكابد، وأحيانا يضيع وقته سدى بدون عمل مُجْدٍ، ويتكلم عبثا.. لأن جسم الإنسان وعقله لا يبقيان فارغين بدون

عمل، بل إن الإنسان يعمل في كل حين عملا ما. ولكن بعض أعماله لغو وضار، وبعضها مفيد وخير. ولكن رمضان يدربه على ما يعَوّده على تحمل المشاق والشدائد في أعمال الخير. ما هي الأمور التي يجد فيها الإنسان متعة وراحة؟ إنما هي الأكل والشرب والنوم والعلاقات الجنسية. وهذه الأخيرة هي أعلى نموذج للتمدن، ويندرج تحتها أيضا مقابلة الأصدقاء والارتباط بالأعزة والأقارب.. إلا أن علاقة الزوجين أقوى هذه العلاقات. إذن تتوقف راحة الإنسان على الأكل والشرب والنوم والعلاقات الجنسية. قال أحد الصوفية أن روح التصوف هي قلة الكلام وقلة الأكل وقلة النوم، ورمضان يتضمن هذه الخلاصة الصوفية.. ففيه قلة النوم؛ لأن المسلم يستيقظ لصلاة التهجد. وفيه قلة الطعام، وهو ظاهر لأنه يجوع طول النهار. وفيه قلة العلاقات الجنسية، وفيه أيضا قلة الكلام.. فقد قال النبي ﷺ: ليس الصوم أن يمسك الإنسان عن الأكل والشرب، ولكن الصوم أن يترك لغو الكلام. فلا بد للصائم أن يكف عن لغو الحديث والخصومة وغيرهما مما يدخل في اللغو. وهذه الأمور الأربعة من الأهمية بمكان، ولها علاقة عميقة بالحياة الإنسانية. وعندما يقلل الصائم من هذه الأمور الأربعة التي تتمثل فيها راحته ومتعته، فإنه يعّود نفسه على تحمل المشاق، وبالتالي يتصدى لكل شدة في الحياة بشجاعة ويكون من الناجين.

وسادسا –من معاني قوله تعالى (لعلكم تتقون) أن الإنسان الصائم يتقي بصومه من السيئات والذنوب. فبانقطاعه عن الدنيا تزداد نظرته الروحانية حِدّة، ويطلع على عيوب لم يكن يبصرها من قبل.

وكذلك يتقي الصائم من الذنوب بإمساك لسانه كما قال المصطفى ﷺ: (من لم يَدَع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه) (البخاري، كتاب الصوم).. أي لا يعني الصوم أن يمتنع الإنسان عن الطعام والشراب طول نهاره، بل عليه أن يحمي فمه من كل ما يضر روحانيته، فلا يكذب ولا يسب ولا يغتاب ولا يختصم. الأمر بحفظ اللسان عام، ويجب العمل به دوما، ولكن الصائم يحفظ لسانه بصفة خاصة وإلا فسد صومه. وإذا تعوّد الإنسان على حفظ اللسان

لشهر كامل تمكّن من حفظ نفسه سائر الشهور أيضا. وهكذا فإن الصوم يحميه من الذنوب على الدوام.

وسابعا –وقوله تعالى (لعلكم تتقون) يذكر منفعة أخرى للصيام.. وهي أنه يثبِّت قدم الإنسان على التقوى، ويتيح له نوال المدارج الروحانية العليا. فليس الأثرياء وحدهم الذين يتقربون إلى الله بالصيام، بل إن الفقراء أيضا يشعرون في الصيام بانقلاب روحاني في نفوسهم، ويحظون بمتعة الوصال بالله تعالى. إن الفقراء الذين يعيشون طول السنة في ضيق، وأحيانا يذوقون الجوع مرة بعد أخرى.. نبههم الله برمضان أن بوسعهم استغلال هذا الجوع لكسب الثواب. والثواب على الجوع من أجل الله عظيم.. حتى ورد في الحديث أن الله يقول: (الصوم لي وأنا أجزي به). أي أن لكل حسنة أجرًا مختلفًا، أما الصوم فأنا الجزاءُ للصائم. وإذا فاز الإنسان بالله.. فماذا يريد بعد ذلك؟ فبالصيام يعلّم الله الفقراء أنهم إذا صبروا على هذه الشدة والضيق و لم يشكوا الله –كما يفعل بعض الجهلاء ويقولون: ماذا أعطانا الله حتى نصوم ونصلي؟ –كُتب هذا الجوع في صحيفة أعمالهم حسنةً، فلا حاجة أن ييأسوا ويقولوا: ما جدوى هذه الحياة مع الفقر والجوع؟ لو عاشوا بالفقر والجوع ابتغاء وجه الله فإن هذا الجوع نفسه يشرّفهم بلقاء الله.

الواقع أن الفقراء أكثر عددا من الأثرياء في العالم، وكانت بداية كل الجماعات الدينية بالفقراء، وانتهاؤها أيضا بالفقراء الغرباء. بل كان جميع الأنبياء تقريبا من الفقراء: لم يكن عيسى ولا موسى و لم يكن الإمام المهدي من الأثرياء. لقد ارتفع ثمن عقاراته بازدهار قاديان.. وإلا فإنه بنفسه قدّر ثمنها بمبلغ ١٠,٠٠٠من الروبيات. والممتلكات بهذا الثمن لا تُدِر عائدا كبيرا. و لم يكن إبراهيم ولا نوح من أثرياء القوم. نعم، يجعل الله أنبياءه عظماء كبارا، ولكن هذا يتم فيما بعد وبفضله هو عز وجل. لم يكن مؤسسو الديانات من كبار القوم.. أي من الأثرياء والملوك. صحيح أن بعض أنبياء الله كانوا من الطبقة الوسطى، ولكن ليس من الملوك إلا قلة نادرة مثل داود وسليمان، ولكن لم يكن أحد منهما مؤسسا لديانة. إن ٨٠ %من سكان العالم فقراء. وبرمضان واسى الله هذه الأكثرية الفقيرة التي ضاعت أعمارها

في الفقر، وقال لهم لا تظنوا أن الفقير لا يستطيع لقاء الله.. وإلا فكيف حظِيَ الصائمون في رمضان بلقاء الله؟ يمكنكم نوال بركات عظيمة من الله رغم فقركم.. ولكن بشرط ألا تنسوه في فقركم، ولا ينطق لسانكم بكلمة شكوى من الله تبارك وتعالى.

ومن جانب آخر فإن الصيام يحقق التقوى للأثرياء أيضا، وذلك أن الصائم منهم يجوع من أجل الله، ولا يأكل إرضاء له، ولا يستخدم ما أباحه الله له من الحلال، رغم توافر ما لذّ من طعام وشراب في بيته وتحت يده. عندما يفعل ذلك يفكر في نفسه تلقائيا أنه ما دام قد ترك الحلال إرضاء لله.. فلماذا يرغب فيما حرّمه الله؟ وهنا تتولد فيه القدرة على ضبط النفس ويزيده الله تقدمًا في مجال الخيرات.

وثامنا —من المنافع الروحانية للصوم أن الإنسان بالصوم يتشبه بالله نوعا ما. فمن صفات الله أنه أسمى من أن ينام. والصائم لا يستطيع أن يستغني عن النوم كلية، ولكنه يستطيع أن يضحي بجزء من نومه أثناء شهر الصيام إرضاء الله تعالى: فيستيقظ لتناول السحور والصلاة والتهجد. أما النسوة اللاتي لا يستطعن الصوم فهن يشتغلن في إعداد طعام السحور. ثم يقضي الإنسان بعض ليله في الدعاء وبعضه في الصلاة. وهكذا لا يبقى من الليل إلا القليل للنوم. أما الذين يشتغلون بأعمال وقت النهار فلا يبقى لهم للنوم في أيام الصيام إلا سُوَيعات. وهكذا يتشبه الإنسان بالله إلى حدّ ما.

ثم إن الله منزه عن الأكل والشرب، أما الصائم فلا يستطيع ترك طعامه وشرابه تماما، ولكنه بالإمساك عن الطعام وقت النهار في أيام رمضان يتشبه بالله في هذه الصفة إلى حدّ ما.

ثم كما أن الله خيرٌ كله، كذلك الصائم مأمور في رمضان على وجه الخصوص بفعل الخيرات. ولقد قال النبي ﷺ لا صوم لمن يقع في الغيبة والنميمة وسوء القول وما إلى ذلك. فكأن المؤمن أيضا يسعى ليصبح خيرا كله، ويتجنب الغيبة والشجار والخصام. وهكذا يتشبه قدر المستطاع بالله تعالى.

والظاهر أن كل شيء منجذب إلى مثله، وهناك مثل يقول: الطيور على أشكالها تقع. فمن المنافع الروحانية للصيام.. أن الإنسان يحظى بوصال الله تعالى، ويصبح الله محافظا عليه.

وتاسعا–من المنافع الروحانية للصيام أن إلهام الله يترل على قلب الصائم، وتزداد بصيرته الكشفية جلاء ونورا. والحقيقة أننا لو تدبرنا لوجدنا أنه ليس عند الله عادات، ولكن فيه ما يشبه عادات الإنسان على نحو ما. ليس لله عيون كعيون البشر، ولكنه يقينا بصير. وليس لله آذان كآذان الإنسان، ولكنه يقينا سميع، وليس عند الله عادة من العادات التي تكون في الإنسان ولكنه يعيد أفعاله. والعادة تعني إعادة فعل مرة بعد أخرى، وهذا الأمر يتصف به الله تعالى، فهو إذا أنزل فضله في مناسبة ما.. أعاد إنزال فضله كلما عادت هذه المناسبة. وبما أن كلام الله.. القرآن الكريم.. نزل في شهر رمضان، فلو وضعنا صفة العود الإلهية في الاعتبار، واتبعنا الرسول الكريم الذي نزل عليه القرآن لاستفدنا من هذه الصفة الإلهية المشابهة للعادة الإنسانية. فالذين يقتدون بالرسول ﷺ، وينقطعون عن الدنيا رغم وجودهم فيها، ويقللون من أكلهم وشربهم ونومهم، ويتجنبون لغو الكلام، فإن الله يشرفهم بإلهامه ويترل عليهم كلامه في كل رمضان بحسب هذه الصفة، ويفتح عليهم أبواب رؤى وكشوفٍ صادقة، ويطلعهم على أسرار غيبه.

هناك إلهام لسيدنا المهدي معناه: "جاء الربيع ثانية وتحقق وعد الله مرة أخرى" (ضميمة البراهين الأحمدية، الخزائن الروحانية ج٢١ ص٢٥٨). وهنا أيضا ذكر موضوع العادة والتكرار. لقد تجلى الله مرة في فصل الربيع، وكلما أتى هذا الفصل يقول الله: ماذا سيقول عبادي؟ فَلْنَتَجلّ عليهم برحمتنا مرة أخرى. وإذا استفاد الناس منها نزلت عليهم هذه النعم في ربيع قادم.

وقصارى القول: لو أننا شبهنا كلام الله بشجرة.. فإن الصفة الإلهية المشابهة للعادة الإنسانية تمز هذه الشجرة كل مرة في رمضان، فتساقط على المؤمنين فواكه طازجة.

وعاشرا–ومن المنافع الروحانية للصيام أيضا أن الإنسان في رمضان يترك مأكله ومشربه لله تعالى.. فكأنه يبدي استعداده للتضحية بنفسه في سبيل الله. وعندما يقطع علاقته الجنسية مع زوجته.. فكأنه يعلن استعداده للتضحية بنسله في سبيل الله. وعندما يقدم هذه الأسوة يستحق لقاء الله تعالى. وبسبب توطيد هذه الصلة مع الله، وبازدياده قوةً في الروحانية يصبح الصائم بمأمن من الضلال طول حياته.

ثم إن صيام رمضان يعوِّد الإنسان على الاستمرارية والدوام، لأن هذه الحسنة تستمر لمدة طويلة. يتناول الناس أثرياء أو فقراء، من أهل المدن أو القرى.. عدة وجبات كل يوم بحسب مقدرتهم، ولكن الصائمين يقتصرون في رمضان على وجبتين فقط. وفي الأيام الأخرى ينامون طول الليل، بينما في رمضان يستيقظون لصلاة التهجد وتناول السحور، ويقضون كثيرا من وقت النهار في تلاوة الذكر الحكيم. وهكذا في أيام رمضان يضحي الإنسان بكثير من عاداته، ولا تستمر هذه التضحية ليومين أو ثلاثة.. وإنما لشهر كامل بدون انقطاع. فالصيام إذن يعلّم درسا في الاستقامة والمداومة والاستمرارية. والحقيقة أن الإنسان لا يمكن أن ينال الله بدون التضحيات المستمرة غير المنقطعة.. لأن المحبة الحقيقية لا تحتاج إلى محرّك يثيرها، كما أنها لا تكون مؤقتة تحت ضغط، بل إنها تتصف بالطواعية والاستقلال. ولهذا السبب عندما عرف النبي ﷺ أن إحدى زوجاته قد ربطت حبلا في السقف حتى إذا غلبها النعاس في الصلاة تمسكت به كيلا تسقط.. قال هذا ليس بالعبادة، وإنما العبادة الحقيقية هي تلك التي يؤديها الإنسان ببشاشة دون ملل يقضي على صفة الدوام فيها (البخاري، كتاب التجهد).

الحادي عشر–ومن منافع الصيام أن يتدرب المؤمن في هذا الشهر على التخلي عن حقوقه المشروعة. إنه يتدرب خلال أحد عشر شهرا على ترك الحرام، ولكنه في الشهر الثاني عشر –رمضان–لا يترك الحرام فقط، وإنما يتدرب على ترك الحلال. وكأننا في غير أيام الصيام نقدم نموذجا لترك الحرام لوجه الله، ولكن في الصيام نقدم نموذجا لترك الحلال أيضا لوجهه تعالى. والحق أنه لا يمكن تحقيق نجاح حقيقي في الدنيا إلا إذا تعودنا على ترك الحلال أحيانا. إن أكثر الفتن في العالم لا تحدث لأن

الناس لا يريدون ترك الحرام، وإنما لأنهم غير مستعدين لترك الحلال. إن الذين يهضمون حقوق الناس الآخرين بطريق غير شرعي قلّة، ولكن ما أكثر الذين هم مستعدون للقتال والنزاع بدل أن يتخلوا عن الحلال. هناك كثير من المجانين والحمقى الذين يثيرون فتنا عظيمة وفسادا كبيرا في العالم لنيل حقوقهم، غير مكترثين لتدمير سلام العالم.. مع أنهم لو قدموا التضحية بحقوقهم لتم القضاء على كثير من النزاعات والمفاسد، ولتوطد جو الأمن والوئام، فشهر رمضان يعلِّم ألا تترك الحرام فحسب، بل إذا دعت الحاجة فاترك الحلال لوجه الله، حتى يتوطد الخير، وينتشر في الدنيا وتكون كلمة الله هي العليا.

ويجب أن نتذكر أن العبادات الإسلامية تشتمل على كثير من الدروس، وبعض هذه الدروس في كل عبادة، وبعضها نتلقاها في أكثر من عبادة، وبعضها تتجلى في مجموعة من العبادات. ونفس هذا المشهد نراه في العالم المادي الذي خلقه الله تعالى.. ففي كل فرد منه حقيقة، ولكن في فردين معا حقيقة أخرى، وإذا اجتمع أكثر من اثنين ففيهم حقيقة أخرى، ثم في العالم كله حقيقة أيضا. وكما نجد ترتيبا ونظاما وربطا بين قانون الطبيعة، كذلك نجد ربطا ونظاما بين العبادات. ولكن هذا لا يوجد إلا في الشريعة الإسلامية دون غيرها. هناك في الشرائع الأخرى صلاة وزكاة وصوم وغيرها من العبادات، ولكن لا ربط بينها، ومثالها كاللبِنات المبعثرة. ولكن لو نظرنا في الشريعة الإسلامية لوجدنا في كل تعليم منها حقيقة. ثم في اجتماع أكثر من تعليم حقيقة وحكمة أخرى. ومثال ذلك الصلاة والصوم. فالصلاة في حد ذاتها تحتوي على درس، والصوم يحتوي على درس، ولكنهما معا يشتملان على درس إضافي آخر. ولو لم تكن الصلاة مع الصيام: أو لم يكن الصيام مع الصلاة لفقدنا هذا الدرس. صحيح أن الصيام في حد ذاته نافع، والصلاة بنفسها نافعة أيضا.. شأن كل العبادات الإسلامية التي تقدم كل منها نفعا عظيما، إلا أن الصلاة والصوم معا تعلماننا درسا أريد ذكره الآن.

إن المقام الأصلي للصلاة هو الطهارة، ويسمى الوضوء، لذلك قال النبي ﷺ إذا توضأ أحدكم وجلس في مُصلاّه فهو في صلاة (مسلم، كتاب المساجد). الصلاة إنما هي الذروة من هذه الحالة، وإلا فإن الصلاة الحقيقية هي تلك الكيفية القلبية الطاهرة للمؤمن التي تتعلق بالوضوء.

تعالوا الآن ننظر ما هي حقيقة الوضوء. إن العمل الذي نقوم به في الوضوء يستمر إلى أن يخرج من الجسم شيء، كالبول أو البراز أو ما يخرج عند اللقاء الجنسي بين الزوجين، أو ما يُحدثه المرء وينقض الطهارة. إذن فمدار الوضوء على عدم خروج شيء من الجسم. وبناء على ذلك يمكن القول أن مدار طهارة الصلاة على عدم خروج شيء من الجسم، أما مدار طهارة الصوم فعلى عدم دخول شيء في الجسم. صحيح أننا نُهينا عن العلاقات الزوجية أثناء الصوم، ولكن ذلك لكيلا ينحرف اتجاهنا عن الصوم.. وإلا فإن المدار الحقيقي للصوم هو عدم دخول شيء في الجسم. لو كان هناك الصلاة فقط، ولو كان الوضوء للطهارة الظاهرية فقط.. لقيل إنما المقصود منه هو غسل الوجه والأطراف فقط. وكذلك لو كان هناك الصوم فقط. ولو كان هناك رخصة لأكل شيء قليل لقيل إنما المراد من الصوم الجوع فقط. ولكن نقض الوضوء بخروج شيء من الجسم، وبطلان الصوم بدخول شيء في الجسم.. لَيَدُل على أن هناك علاقة بين خروج شيء من البدن وبين الصلاة، وعلاقة بين دخول شيء في البدن وبين الصوم. وبالجمع بين هذين الأمرين نتوصل إلى نتيجة أن الإنسان لا يمكن أن يكتمل طهارةً ما لم يأخذ حذره من جانبين.. أي لا يسمح لبعض الأشياء بالدخول في جسمه، ولا يسمح لبعض الأشياء الأخرى بالخروج منه. فإذا أخذنا هذين الاحتياطين كملت طهارتنا. فبالصلاة والصوم معا.. عُلّمنا أن علينا أن نضع في الاعتبار أنه بخروج بعض الأشياء من الجسم يصبح الإنسان غير طاهر، فلا يسمح لها بالخروج: وأنه بدخول بعض الأشياء في الجسم يصبح غير طاهر، فلا يسمح لها بالدخول.

والسؤال الآن: ما هي تلك النجاسات التي يضر خروجها من الإنسان بروحانيته؟ في الأمور الدنيوية نرى أن خروج النجاسة من الجسم هو الخير والأفضل، فهل

هناك نجاسات يكون عدم خروجها هو الأفضل؟ نعرف من القرآن الكريم ومن أقوال النبي ﷺ أن هناك فعلا بعض النجاسات والفسادات التي يكون عدم خروجها هو الأفضل والخير. فمثلا يكون أحد كثير الغضب، فلو ثار غضبه في مناسبة، ولكنه كظم غيظه فإن الله يمدحه ويقول (والكاظمين الغيظ) (آل عمران: ١٣٥). فالإنسان الصالح المتقي أيضا يغضب، ولكنه يكظم غيظه.. مثلما يفعل في الصلاة حيث يراعي أن لا يخرج منه أشياء تنقض الوضوء. هناك بعض الكيفيات التي إذا كبتها الإنسان قلّ ظهورها، وإذا تركها حرة ظهرت أكثر. والغضب أيضا من هذه الكيفيات. وفي لغتنا يقولون: لقد أخرجت عليه غضبك فاتركه الآن. أي لقد عبرت عن غضبك بلومه وضربه فاتركه الآن. ولكنه لو كبته وكظمه كسب حسنة. ويقول الرسول ﷺ: إذا همّ الإنسان بسيئة ولكنه لم يعمل بها وردع نفسه عن فعلها.. فإنه يثاب على ذلك (مسلم، الإيمان). إذن فهناك بعض الكيفيات القلبية التي إذا أظهرها الإنسان بطلت طهارته، وإذا كظمها أصبحت حسنة. وهذا الدرس نتعلمه من الصلاة.

والأمر الثاني ألاّ نسمح لبعض الأشياء بالدخول في أجسامنا، ومثال ذلك الكذب والاستهزاء والنميمة والغيبة وغيرها. فعدم سماع هذه الأشياء أيضا يصبح حسنة. لأن الاشتراك فيها يعرّي الإنسان من الروحانية. فالصوم يعلّمنا أن نتجنب بعض الأمور النجسة التي إذا دخلت في نفوسنا أبطلت روحانيتنا وحرمتنا من قرب الله عز وجل.

فلكي يكتمل الإنسان في الأخلاق السامية لا بد له من مراعاة الأمرين؛ أي لا يسمح لبعض المفاسد من أن تخرج من جسمه، ولا يسمح لبعضها أن تدخل فيه.

وإذا قيل: لماذا أمر الله بالصيام في شهر رمضان فقط، ولم يوزع أيامه على مدار السنة؟ فالجواب أنه إذا لم يعمل الإنسان عملا ما بتواتر ومن دون انقطاع لم يحصل على تدريب صحيح. فلو صمنا كل شهر يومين لم ننتفع منها. الإنسان أحيانا يتأخر عن أكل وجبة بسبب خروجه للنزهة مثلا، وأحيانا لا يأكل طعامه لانشغاله ببعض الأمور.. لكن هل يعوّده هذا على تحمل المشقة والجوع والعطش؟ إن

الحكومات أيضا تقوم بتدريب الجنود تدريبًا متسلسلاً، لا ليوم أو يومين في الشهر. فالعمل الذي يؤديه الإنسان أداء متقطعا لا يتدرب عليه، وإنما يحتاج التدريب إلى القيام بالعمل باستمرار وبدون انقطاع. لذلك فرض الله صوم شهر كامل حتى يتعوّد المؤمن على تحمل الجوع والعطش لوجه الله، ويتدرب على قيام الليل، وذِكر الله وتلاوة القرآن وقت النهار، فتزدهر مواهبه الروحانية وترتقي.

فشهر رمضان يأتي من الله تعالى ببركات ورحمات خاصة. إن أبواب نعم الله وأفضاله مفتوحة في كل وقت عموما، ويمكن أن ينهل منها الإنسان متى شاء. فقط هناك حاجة لأن يسأله إياها. وإلا فإن الله لا يتأخر في إعطائها، لأنه سبحانه لا يخذل عباده أبدًا، وإنما العباد هم الذين يتركون باب الله ويذهبون إلى أبواب الآخرين أحيانًا. بعد وقعة بدر رأى النبي ﷺ امرأة تجري هنا وهناك في قلق وفزع، وكلما رأت ولدا أخذته وضمته إلى صدرها فقبلته وتركته. وفي آخر المطاف عثرت على ولدها، فاحتضنته وجلست مطمئنة. فقال النبي ﷺ لصحابته: (لله أرحم بعباده من هذه بولدها) (مسلم التوبة). فليس من الصعب أن ينشئ العبد صلته بهذا الإله الرحيم الكريم. إن كل ساعة يمكن أن تصبح ساعة من رمضان، وإن كل لحظة يمكن أن تتحول لحظة لقبول الدعاء. إذا كان تأخير فإنما يكون من العبد فقط. ومع ذلك فإنه من جليل نعم الله أنه عيّن شهر رمضان للصيام، ولكي يتدرب على الاستيقاظ والتهجد تحت هذا النظام من لا يستطيع أن يستيقظ بنفسه حتى لا تهلكه غفلته.

فتذكروا أن الصيام ليس بمصيبة. لو كان فيه أذى لجاز للإنسان أن يقول لماذا أتأذى به؟ ولكن كما ذكرت من قبل.. فإن الصيام سبب لحماية الإنسان من الأذى والشر والآثام، ووسيلة للقاء الله تعالى. صحيح أن الصوم يبدو في الظاهر سببا للهلاك، لأن الإنسان يضطر فيه إلى الجوع، ويتناول الطعام في غير موعده مما قد يربك معدته، ويسهر ويقل نومه. ثم هو مأمور أن يُكثر من الصدقة، ويزيد من الجود، ويهتم برعاية الفقراء.. ولكن الحقيقة أن هذه التضحيات هي التي تجعله محبوبا لله تعالى، وهي التي تؤدي إلى الرقي القومي.